كوستي بندلي



ومعناه الانساني

طبعة رابعة منقحة ومزادة

منشورات النور

مقتطفات مما كتبه الاستاذ يوسف الخال عن كتاب « الجنس ومعناه الانساني » في طبعته الاولى

« ... من حسن حظ القارىء العربي ان يصدر كتاب في « الجنس ومعناه الانساني » ، لكوستي بندلي ... وجدت نفسي امام عقل راسخ في معرفة الأسس والاصول ، متحرر من التزمت والتقليد ، منفتح على التيارات المعاصرة في مجمل تناقضها (...) .

« وكم افادني كتابه هذا عن الجنس . فمنه تعلمت مرة اخرى ان الجنس (...) ليس حاجة بيولوجية بحتة (...) وهو ، اذن ، لا يهدف الى ازالة توتر عضوي فقط . انه « وصال » و « جماع » مع الآخر ، يزيل العزلة التي يشكو منها الانسان ابدا (...) .

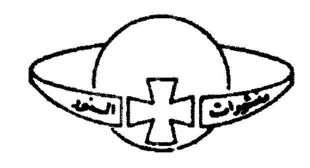
« وتعلمت ايضا ان « تحرير » الجنس في المجون المعاصر ما هو الا « عبودية » اقسى من عبودية الصمت والجهل والخوف (...) وكيف لا يكون ذلك حين يبطل الشخص الاخر ويصير التركيز على اللذة الجنسية والتهالك عليها كمية وتفننا ، لا نوعا وعاطفة . وهنا يدب السأم والفراغ (...) .

« وتعلمت من الكتاب ان الحب لا يبطل العلاقة الجنسية ، لكنه وحده يجعل منها « وصالا » لا احتكاكا خارجيا بين عزلتين متقابلتين (...) وما العفة سوى الحرص على ان يحتفظ هذا اللقاء بمرماه الاتحادي (...) فالعفة ليست سلبية تعني ، بالمفهوم التقليدي الموروث ، الخوف من الجنس ، والنرجسية ، والكبت بجميع معانيه وابعاده . فما هذه الا عفة زائفة (...) .

« وتعلمت آخرا ، وهو الاهم ، ان الجنس سعي الى المطلق عن طريق الحب الذي فيه يتبلور الجنس ويتسامى (...) على ان المطلق لا يدرك بالحب الذي يستقطبه (...) لذلك لا يقترن الحب بالسعادة فقط ، بل بالكآبة والحنين ايضا . وهنا يجيء دور الله . فهو « المشتهى بالحقيقة » كما تقول طقسية بيزنطية ، واليه نسعى في آخر المطاف حركة الجنس عند الانسان (...) .

« وبايصالنا الى الله ، ينهي كوستي بندلي رحلته البهيجة الهانئة في مجاهل الجنس وآنافه الرائعة .

« وهي رحلة فريدة في نوعها ، على الاقل في تراث اللغة العربية » .



الفهرس

الصفحة

الصفحة

الفصل الثاني

الحب كتحقيق لمرمى الجنس الاتحادي

هكذا فالوعد الذي يحمله الجنس ولا يفي به اذا عيش على صعيد الحاجة الغريزية وحسب ، لا سبيل لتحقيقه الا عن طريق اللقاء الصميمي بين شخصين ، وهذا اللقاء هو الحب[1]. الحبّ وحده يحقق وعد الجنس ، لانه وحده يوفّق بين ما فيه من متناقضات ، « بين الجسد والروح ، الأنا والآخر ، الحاجة الى الآخر وسخاء بذل الذات ... »[2] . بالحب تتحقق الرغبة الجنسية ولكنها تتحول بآن لانها تكتشف ان الآخر الذي تسعى اليه لا يُمتلك كما تمتلك الاشياء ولكنه شخص حرّ يعطي ذاته اذا شاء[3] . انه حركة يتجاوز بها الجنس ذاته باتجاه الآخر ، وبهذا التجاوز وبه وحده يتحقق ما كان الجنس ، في ممارسته النرجسية (أي التي يسيطر عليها السعي الأناني الى اللذة) ، يصبو اليه دون ان يدركه ، الا وهو اللقاء بالآخر ، ذلك اللقاء الذي هو ، كما رأينا ، هدف الجنس بأعماقه . بالحب وحده يصل الجنس الانسان بالآخر مع المحافظة على استقلال كل من الشريكين ، لان التمييز ضمن الوحدة لا بد منه لكي يتم هناك تبادل وبالتالي لقاء : « مفارقة الحب تكمن ، يقول اريك فرّوم، في ان كائنين يصبحان واحداً ومع ذلك يلبثان اثنين »[4] . ليس فيه اذاً تغييب للآخر كما في الشهوة بل تأكيد له ككائن آخر ، مستقل .

هذا الحب لا يبطل اهمية العلاقة الجنسية ولكنه وحده يجعل منها « وصالاً » لا احتكاكاً خارجياً (« احتكاك جلدين ») بين عزلتين متقابلتين[5]. انه لا يبطل اللذة ولكنه يعطيها كل ابعادها اذ يجعلها منفتحة على ما هو اعمق منها وأبعد[6]. بالحب اذاً يدرك الجنس حقيقته في حركة تجاوز لذاته اي لطبيعته الغريزية[7] . انه خلاص الجنس الذي لولاه ينقلب على نفسه وكأنه

يأكل ذاته حاكماً على ذاته بالفشل[8] . هذه هي « طريق الاكتمال حيث يتحقق الحب بالجسد فيما يتجاوز الجسد ذاته بالحنان »[9] .

اكتمال وتجاوز بآن : هذا هو الحب بالنسبة الى الجنس . لنا على تلك العلاقة نموذج رائع في رواية للكاتبة المعاصرة فرنسواز ماللیه ـ جوريس . بطلا الرواية نقولا ومارسيل تجمعهما لأول وهلة علاقة مركّزة على المتعة الجنسية ، يحاولان بها دون جدوى ان ينسيا فراغهما . ولكن الحب يشق طريقه في قلبيهما ، واذا بهما اخيراً يلتقيان[10] : « ... لقد أحسّ (نقولا) بأن هذا الحرمان الدائم ، هذه الكآبة اللذين كان يثيرهما فيه جمال (مارسيل) منذ اليوم الاول قد سكنا . وانتابه شعور بأن هـذا الجمال الهارب قد حطّ منذ قليل كطير قريباً جداً منه ، أقرب من أي وقت مضى ، وانه كان ينبغي الا يتحرك لئلا يخيفه » . واذا بنوعية اتصالهما الجنسي تتحـول[11] لان الجسد تحرر من محدوديته واصبح مكان حضور شخصين ولقائهما : « لقد كان هذا الجسد الساكن يُشعّ حضوراً عذباً ... »[12] . واذا باللذة تصبح مدخلاً الى ما هو أعمق منها وابعد : « ... لقد كانت اللـذة بعيداً ، بعيداً جداً وراءهما ، يسمعانها كموسيقى خافتة ... »[13]. واذا بالاستهلاك يزول ليحلّ مكانه اتصال بالآخر ومن خـلاله بالوجود قاطبة : لقد احسّ نقولا « بقوة لم يكن له عهد بها من قبل ، لا الطعام الثقيل الذي كان يشبعه ويثير اشمئزازه بآن ، بل الدنو من جمال وتأمله ، جمال يسامر وينصهر هو فيه ، عند ذاك ينظر الواحد الى الآخر بقدر ما يملكه ، واذا بالعالم كـله في تلك النظرة ، استدارة التلال وطعم الارض القوي والبارد عندما يحفر المرء عميقاً ، هذا السرّ ، المعادن المطمورة التي يحس الانسان بوجودها دون ان يراها . . »[14] .

ذلك الاتصال بالكون من خلال المحبوب ، عبّر عنه الشاعر الفرنسي المعاصر بول الوار بتلك الأبيات :

« لقد أتيتِ ...
« فتغيّر معنى الارض والبشر ...
« أتيتِ ، كنتُ كئيباً ، قلتُ نعم
« انطلاقاً منكِ ُقلتُ نعم للكون »[١٥]

في رواية سهيل ادريس « الحي اللاتيني » نجد ايضاً وصفاً لهذا اللقاء الذي يتم اذا تجاوز الجنس ذاته بالحب . فان بطل الرواية ، بعد ان عاش مغامرات جنسية صرفة عادت بالخيبة عليه ، صادف الحب اخيراً في شخص جانين مونرو . واذا به يختبر في الرغبة ما يتجاوز الرغبة ويعيش ما عبّر عنه نيتشه بقوله : « في الحب الحقيقي ، الروح تغلّف الجسد . »[١٦] :

« ... ونهض عن كرسيه ، فجذب جانين اليه ، وهمهم باسمها مغمض العينين ، فيما كانت شفتاه تطبقان على شفتيها .

« وأحس من نشوة هذه القبلة بمثل الخدر . شعر بأن كيانه كله تجمّع في شفتيه ، فالتصق بشفتي جانين كأنما ينزع الى الفناء فيها . لا ، لم يكن ينبض فيه عرق من شهوة ولا احساس من اهتياج . كأن روحاً تعانق روحاً »[١٧] .

هكذا بالحب وحده تتخذ العلاقة الجنسية كل ابعادها ، لانها تصبح لغة تخاطب[١٨] . قد يبدو لأول وهلة ان الاتصال الجنسي هو هو في الحب وخارج الحب . ولكن هذا وهم . فالكلمة ، اذا حلّلناها فيزيائياً ، هي مجموعة أصوات وحسب ، ولكن فرادتها ، ما يميزها قطعياً عن أي صوت ، هي في كونها صوتاً

ذا معنى . هكذا بالحب تتحول العلاقة الجنسية بالكلية لانها تتخذ معنى ، تصبح لغة يتصل بها كائنان بشريان على صعيد أكثر صميمية من مستوى « لغة الكلام » . وكما ان الكلام الاصيل يتميز عن الثرثرة في كونه ينقل معنى فيما الثرثرة « كلام من اجل الكلام » ، كلام فارغ ، هكذا يتميز الجنس الذي يلهمه ويسكنه الحب عن ذاك الذي يتخذ ذاته غاية فيفقد معناه واصالته[19].

هذا الحب الذي به يحقق الجنس مرماه الانساني الاتحادي هو ما يعطي الجنس قيمته الخلقية بآن[20]! هنا نعود الى السؤال الذي طرحناه في مقدمة هذا الكتاب ،. الا وهو ما هي أسس مناقبية الجنس . لقد بيّن فرنسوا شيرباز ان الاخلاق لا تُضاف الى الجنس لتنظمه بموجب نواميس خارجية ، انما تنبع المقتضيات الخلقية من طبيعة الجنس الانساني نفسها . لذا فالمدافع عن الاخلاق والمنادي بالاباحية مخطئان كلاهما اذ ينظران الى الجنس على انه مجرد نزعة غريزية ذاتية لا تتجاوز حدود الفرد ، فيطلق لها الثاني العنان فيما يخضعها الاول لقواعد غريبة عنها . ولكن كلاهما ينسى ان تلك النزعة الجنسية توق في الانسان للانفتاح الى آخر . فاذا انطلقنا من هنا ، لم تعد الاخلاق مجموعة شرائع تُفرض على الانسان بصورة كيفية ، وبالتالي يكون رفضها تحرراً من قيود ، انما الاخلاق هي التعبير عما ينبغي للانسان ان يتبعه من قواعد اذا شاء ان يحقق اصالته الانسانية ، وبالتالي يكون رفضها تنكراً لتلك الاصالة واجرام للانسان بحق نفسه . لذا فالهاجس الخلقي فيما يخص الجنس ، انما هو تحقيق اصالة الجنس الانسانية وحسب . يقول فرنسوا شيرباز : « جوهر الهاجس الخلقي هو المحافظة ، في العمل الجنسي ، على الحضور الانساني ، هو افساح المجال

لظهور ما يريد ان يعبّر عن ذاته من خلال ذلك العمل . ليس للهاجس الخلقي ان يضاف الى الجنس ليعطيه طابعاً خلقياً : انما له ان يفسح المجال لظهور المعنى الانساني الذي يسكن في الجنس ، بجعل الكلام ان عليه ان يجعل اللقاء الأصيل بين الواحد والآخر ممكناً »[٢١]. ويصل بيار انطوان الى النتيجة نفسها عندما يقول : « بتقييمنا الجنس على هذا المنوال ، علينا ان نقرّ اذاً ان متطلبات مناقبية الجنس هي اساساً متطلبات الحب نفسه وانه لا يمكن ان يكون هناك متطلبات أخرى »[٢٢].

مناقبية الجنس كائنة اذاً في ارتقائه الى صعيد الحب ، في التأليف بين الحب والغريزة ، حسب تعبير الفيلسوف الشخصاني المعاصر جان لاكروا : « الحب دون الغريزة طوباوي ، الغريزة دون الحب أباحية »[٢٣]. بهذا المعنى ايضاً كتب فيلسوف شخصاني معاصر آخر ، دنيس دي روجمون : « ان العمل الجنسي ليس بحد ذاته خيراً ولا شراً . ان درجة الحب الحقيقي وحدهـا (الحب المشخّص ، المرتبط بالشخص) تمكن من تقييم العمل الجنسي . واني لا أرى مقياساً آخر لا يرتبط بهذا المقياس أو لا يُردّ اليه »[٢٤].

آ - ميزات الحبّ[٢٥]

فلنحاول الآن ايجاز ميزات هذا الحب الذي بـــه يصبح الجنس مكاناً للقاء . برأينا ان من أبرز هـذه الميزات اولاً ان الحب يعتبر الآخر مهماً بحد ذاته ثم انـــه يكتشف الآخر في فرادته ويتعهده في بعده الزمني :

١ – انه يعتبر الآخر مهماً بحد ذاته :

ذلك ان اعتبار الآخر مجرد اداة او ذريعة للمتعة الذاتيـة تغييب لشخص الآخر وبالتالي انعـــدام للقاء . يقول فرنسوا شيرباز ان الجنس يدعو « الى لقاء الآخر في كيانه الشامل والى الرفض القطعي بأن يُعتبر الآخر مجرد حجة مغفلة للذتي . فاذا انكرت الرغبة محدوديتها ... لم تعد مجرد سعي الى الذات . لم تعد مجرد انتظار اللذة الذاتية . انها انتظار لقاء في اللذة ، لقاء في لذة هذا الآخر . واذا بهذا الجسد يكشف عن ذاته ، تحت نظر الرغبة ، على انه حضور . ان الآخر هو الحاضر وليس

جسد من الاجساد ، فالملاقة اذاً دنو" لا ينتهي من هذا الآخر ...»[٢٦]

٢ – انه يكتشف الآخر في فرادته :

هكذا فاعتبار الآخر مهماً بحد ذاتـه يقتضي اعتباره كائناً فريداً . اذا كان التركيز على الاستهلاك والمتعة فسيّان بين هذا الموضوع الجنسي او ذاك اذا كانت المتعة واحدة ، كما انه سيان بين لفافة تبغ واخرى اذا كانت اللذة واحدة . اما اذا اعتبر الآخر مهماً بحد ذاته ، وهذا شرط للقاء كما قلنا ، فلم يعد ممكناً ان يُقاس بالمتعة وحدها وان يصنف مع غيره تحت قاسم المتعة المشترك . هذا هو الفرق بين المجون والحب . فالماجـن يسعى الى « الانوثة الابدية » فيجدها في نساء عديدات ، لانه لا ينظر الى كل منهن كالى شخص فريد بل كممثلة للجنس الذي يهواه ، كمناسبة لبلوغ النشوة التي يقصدها ، لانه بالفعل لا يهوى الا نشوته ، الا ذاته . انـه عاشق كبير ، ولكنه كبطل الاسطورة القديمة نرجس ، عاشق لذاته[٢٧]. وقد يعبّر عـن هذا العشق النرجسي بتغزل سافر بنفسه على طريقة عمر بن ابي ربيعة :

« قـالت الصغرى ، وقـد تيمتها :
قد عرفناه ، وهل يخفى القمر ؟ » .

النساء اللواتي تتألف منهن « مجموعاته » لسنَ سوى صور تعكس كلها ، باشكال متنوعة ، رغبته ، انهـن مجرد اجساد يمكن استبدال احداهنّ بأخرى كما تُستبدل تفاحة بتفاحة مع اختلاف بالنكهة فقط . من نظرة كهذه كانت تشكو ڤاليري ،

احدى بطلات اندره مالرو ، عندما قالت لعشيقها : « انني ايضاً هذا الجسد الذي شئتني ان أكونه فقط »[28]. اما الحب فهو على نقيض هذا الموقف . في نظر المجون الآخر مجرد جسد ، اما في نظر الحب فالآخر وجه أي ما يعطي الجسد طابعاً شخصياً[29]. انه ذات حسب تعبير الفيلسوف المعاصر كبريال مادينيه : « ان نحب هو ان نريد الاخر ذاتاً » . في نظر المجون سيان بين نساء عديدات لأن السعي هو الى الجنس من حيث هو ، من خلال تعدد اشكاله . اما في الحب فالجنس كله ينحصر في شخص فريد حسب قول الشاعر : « ايتها المرأة الفريدة انك بالنسبة لي النوع كله »[30] لذا فالحب بطبيعته واحد ، لا يقبل التعدد[31].

٣ – انه يتعهد الآخر في بعده الزمني[32]:

ومن جهة أخرى اذا كان الحب سعياً الى شخص الاخر ، فلا بد له ان يتعهد هذا الاخر في بعده الزمني ، التاريخي ، لان الشخص يحيا ويستمر ويتحقق في الزمن . لذا فالحب يتطلع بطبيعته الى المستقبل ، ينزع الى الديمومة[33]، لا بل ان رغبة الحب العميقة هي معايشة الاخر الى الابد ، حسب تعبير الفيلسوف الوجودي المعاصر كبريال مارسيل : « ان يحب المرء كائناً هو ان يقول له : انت لن تموت »[34] ، ذلك التعبير الذي ينطبق على الحب بمعناه العام كما ينطبق عليه بمعناه المحصور ، معناه الجنسي ، الذي نحن بصدده . هذا الحب بين رجل وامرأة ، حتى اذا ظهر بأشكال هزيلة ، سريعة الزوال ، ينزع في انطلاقته الى الابدية[35] ، فيخطط للمستقبل[36] ويملل نفسه بسعادة

لا تنتهي . هذا ما تعبر عنه الهدايا التي يتبادلها المحبان ، وهي من مواد ثمينة كالذهب واللؤلؤ تصمد في وجه الزمن وترمز الى ديمومة الحب[٣٧] .

هنا ايضاً يتجلى الفرق بين الحب والمجون . « فالحب يرتسم في الزمن ، اما المجون ففي اللحظة »[٣٨] . الماجن لا يرى في الاخر سوى ظرف للمتعة ، ولذا فأنه لا يقيم معه سوى علاقة عابرة كفيلة بأن تمنحه تلك اللحظات الممتعة التي ينشدها . فاذا قضى منه وطره ، أهمله وتحول الى غيره . هذه شيمة النزعة الجنسية اذا لم تتجاوز عنصرها النرجسي . اذا كان الآخر غير موجود بنظري بحد ذاته بل بالاضافة الى حاجتي وحسب ، فمن الطبيعي ان اتجاهل وجوده بعد ان اقضي حاجتي منه[٣٩] . اذا كان الآخر مجرد شيء ُيستهلك ، فمن الطبيعي ان يتخلى المرء عنه بعد حين ، لانه أمر طبيعي ان يسعى المرء الى التنوع في ما يستهلكه . ان القول الشعبي معبر جداً عن هذه المعادلة التي يجعلها المجون بين الجنس والاستهلاك . فيقال عن فلان انه شاء ان « يغيّر على ضرسه » وانه لم يشأ « ان يأكل مجدرة كل يوم » . هكذا ُيعتبر الشخص الآخر مادة استهلاك وُينحدر بالجنس الى مستوى حاجة غريزية بحتة كالحاجة الى الطعام ، مما يشكل احتقاراً للآخر وتشويهاً للجنس بآن . ولكن الماجن يبقى أسير عزلته رغم مغامراته العديدة ، لانه مهما تعددت المغامرات لا يجد في كل واحدة منها سوى نفسه[٤٠] وحدود لذته الذاتية ، واذا بجزع الفراغ ينتابه بعد نشوة عابرة (هذا اذا لم يخدّر حاجته العميقة الى الملء والمعنى) فيعيد الكرة وكأنه بتعدد المغامرات يستطيع ان يحطّم الدوامة التي هو أسيرها[٤١] . عن هذا الفراغ يعبّر احد ابطال الروائي المعاصر هنري فرنسوا

راي ، اذ يقول ان أعمق رغباته هي ان يذوب ويضيع لكي يجنّب نفسه مشقة التفكير في تفاهة وجوده ، وان اتصالاته الجنسية انما هي الوسيلة التي يعتمدها ليجد الضياع المنشود[٤٢]. ولكن هذا الضياع الوقتي في النشوة تتبعه يقظة مريرة وشعور بالعزلة مقيم[٤٣]. اما الحب الحقيقي فشيمته الاستمرار لانه تركيز على اللقاء لا على اللذة ، واللقاء لا يتم الا اذا التزم الشريكان البعد الزمني الملازم لهما كشخصين . لحظة الجماع لا تحقق اللقاء الا اذا كانت جزءاً من تاريخ مشترك يمتد ، حسب رغبة الحب العميقة ، على العمر كله . الحب ، في اصالته ، علاقة بالآخر لا تنفصم . صحيح انه في الوضع الانساني الراهن لا يسعه ان يحافظ بشكل دائم على مستواه . كل حب ، مهما عمق ، يعرف لحظات فتور وملل وعداء ، ولكن ارادة الانسان تلعب دورها هنا لتجبر عثرات الشعور وتساعد الحب على تحقيق قصده العميق رغم نزوات العاطفة[٤٤]. في هذا التعاون الوثيق بين شعور يغذي الارادة وارادة تضبط المشاعر للمحافظة على استمرار الحب ، في هذا التعاون والتناغم يكمن الحب الانساني الأصيل . هذا هو معنى الوعد الذي يتبادله المحبان ، ذلك الوعد الذي يتفرد به النوع الانساني ، لان الانسان ، كما قال نيتشه ، يمكن تحديده بقدرته على ان يعد[٤٥].

ب - نشوء الحب

هذا الحب الذي به يتحقق معنى الجنس العميق هو بأن غاية تطور الجنس في النمو الانساني . هكـذا يلتقي المنظار الظواهري phénoménologique الذي يتقصى القصد الكامن في السلوك الجنسي ، بالمنظار التكويني (génétique) الذي يتتبع مراحل هذا السلوك كما تظهر تباعـــاً اثناء نمو الفرد . لقد كشف لنا فرويد ان للجنس تاريخاً اذ يبدأ في مطلع الحياة ويتطور ماراً بمراحل مختلفة الى ان يبلغ شكله الراشد . فمن تتبع هـذا التطور كما وصفه فرويد ومدرسته وجد ان الجنس في سيره من الوضـــع الطفلي الى الوضع الراشد يتحرر شيئاً فشيئاً من النرجسية ، اي التركيز المفرط على الذات ، وينفتح بالتالي الى الحوار مع الآخر متجاوزاً شيئاً فشيئاً طابعه الغريزي الاستهلاكي ليصبح « لغة » يتخاطب بها كائنان شخصيان . وبعبارة اخرى يتحرر تدريجياً من اعتبار الاخر شيئاً ليعتبره ذاتاً ، واذا شئنا استخدام تعابير الفيلسوف المعاصر كبريال مارسيل ، قلنا انــه يتجاوز اعتبار الاخر « غائباً » (« هو ») ليقيمه « مخاطباً » (« انت »)[٦].

تلك المسيرة التي ، كما قلنا ، تبدأ منذ اول العمر ، تبلغ مرحلة حاسمة عند انتهاء المراهقة ، ولكنها بالواقع تدوم الحياة

كلها لأن « الرشد » بمعناه الكامل حدٌّ مثالي يتقرب منه المرء بدرجات متفاوتة ولكن ما من احد يبلغه كلياً[٤٧] . هذا وان الانسان ، في تقدمه نحو الرشد لا يسير دوماً في خط مستقيم ، انما كثيراً ما يتوقف عن المسير الى آن او نهائياً وقد يعود في كثير من الحالات القهقرى . طريق النضج الجنسي طريق معقد اذاً ومحفوف بالمصاعب والاخطار ، ولكن خطّه العام واضح كما بيّن التحليل النفسي المعاصر : انه انتقال من التركيز المطلق على الذات الى الاعتراف بالاخر كشخص مستقل ، مهم بحد ذاته ، والى اعتباره لا مادة استهلاك بل شريكاً . لقد كتب فرويد بهذا الصدد : « اننا نعزو للفرد طاقة التقدم من النرجسية الى الحب الموضوعي »[٤٨]. وعبارة « الحب الموضوعي » amour objectal تعني في لغة فرويد ، كما هو معلوم ، حب « الموضوع » objet أي الشخص الآخر من حيث انه آخر ، وبعبارة أخرى حب الشخص الآخر من أجل نفسه وليس فقط من أجل الأنا . وفي مكان آخر أشار فرويد الى « نمو الغريزة الجنسية ، كما وصفناه أعلاه ، من الشهوة الذاتية auto-érotisme الى الحب الموضوعي ... »[٤٩] .

يتضح اذاً ان طريق النضج العاطفي ، الذي يتميز عن النضج العقلي والثقافي[٥٠] ، هو الطريق الذي ينتقل فيه المرء من نرجسية الشهوة الطفلية الى اصالة الحب الراشد[٥١] ، ذلك الحبّ الذي عرّف عنه محللو النفس المعاصرون على انه اهتمام بالآخر من اجل ذاته[٥٢]. فقد قارن الدكتور شارل نوديه بين « حب » الطفل وحب الراشد ، فقال ان موضوع حب الطفل « ليس محبوباً من اجل فرادته الشخصية ، بل من اجل الوظيفة التي يؤمّنها » (وظيفة الأمان والتقييم والتهدئة ...)[٥٣] ، اما الراشد

فيمتاز بكونه « قادراً ان يحب انساناً من اجل فرادته الشخصية ، وليس من اجل الوظائف التي يمكنه ان يقوم بها . في هـــذه الحال يمكن لحبه ان يكون هبة عفوية وليس تقدمة ذات طابع نفعي ... »[54] واضاف الكاتب نفسه ان الراشد هو من استطاع ان يحب الآخر كنفسه[55] .

أما اريك فروم فقد كتب مؤكداً على طابع الايثار الذي يتميز به الحب الراشد : « ان الحب هـو في الاساس عطاء وليس أخذاً »[56] . وقال مستشهداً بمحلل نفسي اميركي آخر : « يصرح سوليفان ... بأن الحب يبدأ عندمـــا يشعر شخص بحاجات شخص آخر على انها مهمة بمقدار حاجاته هو »[57] .

وفي الخط نفسه كتب الدكتور اندره برج المحلـــل النفسي والمدير الطبي للمركز النفسي التربوي الشهير التابع لثانوية كلود بيرنار الرسمية في باريس : « انه لنمط جد بدائي من الحب أن يحب الانسان فقط من اجل لذته الخاصة ، دون أي اهتمام حقيقي بالشخص الذي اختاره كموضوع حب . امـــا من نضج شعوره بشكل سليم ، فأنه لا يحترم حظ الآخر بالسعادة وحسب بل يتوق الى منحه اكبر سعادة ممكنة ...

« ... ان نضج الفرد الجنسي يتلاقى ليس فقط مع خيره الخاص بل مع خير المجتمع ايضاً »[58] .

لقد قال فرويد بأن ما يميز الطفل عن الراشد هو ان الاول مسيّر « بمبدأ اللذة » فقط بينما الثاني يقوّم « مبدأ اللذة » هذا باخضاعه « لمبدأ الواقع »[59] . ولكن مبدأ الواقع يقتضي ، كما يذكّرنا المحلل النفسي الكبير شارل بودوان ، ان يقيم الانسان

حساباً للآخرين[٦٠] . لذا يقترح الطبيب النفسي الدكتور اندره ارتوس ان يعتبر « راشداً » من استطاع ان يكون « مسؤولاً » تجاه نفسه وتجاه الآخرين ، من استطاع ان ينفتح للآخر بغية الاتصال به[٦١] .

من هنا نفهم كيف ان علم النفس الحديث يعتبر مقدرة الانسان على الحب الاصيل الذي يقيم للآخر وزناً كأحد المقاييس الهامة لنضجه العاطفي ، وبعبارة أخرى يرى ان الطابع « الحواري » للسلوك الجنسي هو احدى علامات الشخصية الراشدة[٦٢]. انه بذلك يسير على منوال فرويد الذي سُئل في آخر حياته ما هي مقاييس النضج ، فأجاب : « الحب والعمل »[٦٣]. لذا فمن كان عاجزاً عن الثبات في سلوكه الجنسي اعتبر ، من هذا المنظار النفسي ، غير راشد بالفعل . تلك هي حال الدون الجوان الذي قال عنه الدكتور نوديه : « ان حياة الدون جوان ، قبل ان تكون مخالفة للاخلاق ، هي مخالفة للتوازن الراشد »[٦٤] وكتب عنه الدكتور اندره برج : « ان دون جوان ، رغم كل نجاحاته ، ليس في قرارة الامر سوى انسان منكود الحظ لا يكتمل نضجه ابداً »[٦٥] .

مقياس النضج هذا هو ما يفسر حكم المحللين النفسيين على كثير من مظاهر المجون المعاصر على انها اشكال للسلوك الجنسي غير راشدة فعلاً . هذا ما أكده الدكتور هسنار[٦٦] والدكتور جيرار منديل[٦٧] والمحللان النفسيان اللذان درسا ثورة أيار ١٩٦٨ الطلابية من زاوية التحليل النفسي[٦٨] .

والآن حان لنا ان نصف بتفصيل ذلك النمو الذي يؤول تدريجياً بالجنس الى شكله الراشد . لقد بيّن فرويد ان عملية

النضج الجنسي تتم عند الانسان على دفعتين تفصل بينهما فترة يخبو فيها النشاط الجنسي الى حد ما[69]: الاولى تمتد من الولادة الى نحو السادسة والثانية تمتد من بدء المراهقة حتى بلوغ الرشد. في كل من هاتين المرحلتين يمكن ان نتابع خطاً عاماً يتدرج فيه الجنس بموجب اتجاهات ثلاثة متوازية ، متكاملة : من عشق الذات الى عشق الآخر ، من مركزية الأنا الى الاعتراف بالآخر ، من الاستيلاء الى العطاء .

١ - المرحلة الاولى

فالمرحلة الاولى الممتدة على الاعوام الستة الاولى من حياة الطفل أساسية لتكوين الشخصية وبالتالي لتوجيه السلوك الجنسي المستقبل . فاذا سارت الأمور حسب مجراها الطبيعي - وهذا يعود الى حد بعيد الى نوعية العلاقات التي تتوفر للطفل مع محيطه العائلي - كانت هذه المرحلة مجالاً لقيام أسس النضج الجنسي وذلك بموجب الخطوط المتكاملة الثلاثة المذكورة آنفاً :

اولا - انتقال من عشق الذات الى عشق الاخر

شهوة الطفل مركّزة أولاً على جسده وبنوع خاص على بعض من مناطق هذا الجسد تختلف مع العمر (zones érogènes) . فهو يجد لذته اولاً في الفم ، فيتمتع بامتصاص ثدي أمه او اصبعه او شفتيه او لسانه (érotisme oral)[70]. ثم يجد تلك المتعة في اعضاء الافراز (érotisme anal et uréthral) . ثم

يكتشف عضوه التناسلي ويستمد لذة من العبث بـــه واثارته (érotisme phallique) . في تلك المراحل كلها يتعشق الطفل جسده محاولاً ان يستمد منه ما أمكن من أحاسيس المتعـة . ولكنه عندما يبلغ المرحلة الاخيرة من التي ذكرناها يقفز قفزة حاسمة اذ يدخل في الوضع الاوديبي حيث يتحول موضوع عشقه من جسده الخاص الى كائن آخر هو الأم بالنسبة للصبي والأب بالنسبة للبنت . هكذا يصبح الولد قادراً ان يتجاوز في عشقه دائرة جسده وان يتجه الى الآخر . ولكن لكي يكون هـذا الاتجاه أصيلاً وجب ان يكتشف هذا الآخر على انـه آخر . ذلك هو هدف الحركة الثانية التي ترافق وتكـمل الاولى ، ألا وهي الانتقال من مركزية الأنا الى الاعتراف بالآخر .

ثانياً – انتقال من مركزية الأنا الى الاعتراف بالآخر[71]

فالطفل يعيش بادىء ذي بدء في وضع لا تميز فيه بـين العالم الخارجي وأحاسيسه الذاتية ، وكأن ذاتـه تشمل الكون كله . هذا ما دُعي « بالشعور المحيطي » (sentiment océanique) ، كأن الطفل نقطة لا يسعها ان تميز نفسها عن المحيط بل تشعر وكأنها المحيط كله[72]. ينتج عن هذا الشعور احساس وهمي عند الطفل بأن رغبته كلية الاقتدار وان كل شيء في متناولها وانه يكفيـه بالتالي ان يرغب لكي تتحقق له رغبته . جذور هـذا الوضع متأصلة في حياة الطفل قبل الولادة ، اذ يكون عند ذاك جنيناً غير متميز عن جسد والدته . تأتي الولادة فتقيـم التمييز الاول بين الطفل والأم ، هذا التمييز الذي يعـبّر عنه بقطع رباط الصرة . ولكن قطع رباط الصرة العضوي يبقي على

رباط صـــرة آخر نفسي . فالطفل الرضيع يعيش لأول وهلة هذا « الشعور الاوقياني » الذي تحدثنا عنه ، كأن « أناه » لا حدود له وكأن أمه (التي تمثل بالنسبة اليه الكون) امتداد لذاته[٧٣]. وهو بالرضاعة يحاول ان يلتهم أمه ، ان يعيدهـا الى ذاته ، ملغياً هكذا « صدمة الولادة »[٧٤] .

ولكن الواقع يفرض ذاته عليه شيئاً فشيئاً[٧٥] ، وذلـك من خلال اختباره لحاجات فيه لا تُلبى او لا تلبى فوراً . الطفل الذي يبكي لانه جائع ، فيما تستعد أمه لارضاعه ، يبدأ باكتشاف حدوده وبادراك هذه الحقيقة ألا وهي ان أمه متميـزة عنه ، انها آخر[٧٦]. يقول فرويد بهذا الصدد : « ان ثدي الأم المغذي هو بالنسبة للطفل اول موضوع عشق . في البدء من المؤكد ان الطفل لا يميز عن جسده الخاص الثدي المقدم اليه[٧٧]. واذ يلاحظ ان هذا الثدي كثيراً ما يعوزه ، يتعلم ان يضعه خارج ذاتـه وان يعتبره بالتالي « موضوعاً » ... يكتمل فيما بعد اذ يصبح شخص الأم »[٧٨] . ولكن الطفل باكتشافه ان أمـه « آخر » يكتشف بأن « أناه » متميز عن هـــذا الاخر . انـــه باكتشاف حدوده يكتشف اذاً « الأنا » و « الاخر » في حركة واحدة[٧٩] ، على انهما متقابلان . هذا هو الشرط الأساسي ليصبح الحب ممكناً[٨٠] : ان يكون هناك ذاتان في وضعين متميزين ومتقابلين .

ولكن هذا الاكتشاف للآخر (وبالتالي للأنا) يتزايد مـع نمو الرضيع[٨١] . ففي بادىء الأمر لا ينظر هذا الاخير الى الأم الا من خلال حاجته فيراها مجرد ثدي[٨٢] ، ولكن نمو اجهزتـه العصبية والحسية وما يرافق ذلك من نمو عقلي يجعله شيئاً فشيئاً

يرى فيها اكثر من مجرد ثدي يُرضعه ، انه يرى فيها وجهاً (وهذا اساسي لأن الوجه ، كما رأينا ، مكان تجلي الشخص). لذا يبتسم حوالى الشهر الثالث ، كما بيّن الدكتور رينه شبيتز ، لكل وجه باسم او متحرك أمامه . ولكنه لا يميز لأول وهلة بين وجه ووجه ، بل يبتسم لكل الوجوه — اذا أبصرها ضمن شروط معينة — كأن كل وجه يمكنه ان يقوم مقام وجه آخر . الا انه لا يقف عند هذا الحد ، بل يبدأ منذ بلوغه منتصف السنة الاولى من حياته باكتشاف فرادة الأم[٨٣]، ويتبلور هذا الاكتشاف نحو الشهر الثامن فيما دعاه شبيتز « بجزع الثمانية أشهر » حيث يجزع الطفل اذا رأى غريباً أثناء غياب أمه ، مما يشكل دليلاً على تمييزه التام للأم عن الغريب ويُعتبر مرحلة حاسمة في طريق اكتشافه للآخر كشخص فريد[٨٤].

هذا الاكتشاف للآخر كآخر وتمييزه عن الأنا يجتاز شوطاً الى الامام من خلال خبرة الفطام التي يعيشها الطفل ليس كحرمان من حليب الام وحسب (كما يتصور الراشدون في كثير من الاحيان) بل كحرمان من الام نفسها . لذا فالفطام مرحلة دقيقة قد تجر نتائج وخيمة اذا لم تحرص الام على تتميمها بتفهم وتأنٍ ، ولكنها بحد ذاتها مرحلة هامة من مراحل ذلك النضج الذي نحن بصدده . انها تشكل ، على صعيد نفسي ، شيئاً مما شكلته الولادة على صعيد عضوي ، أي انها تفصل ثانية الطفل عن أمه وبذلك تسمح له بأن يزداد وعياً لذاته ولأمه ككائنين متميزين[٨٥]. (هذا وسوف يلعب الدخول الى المدرسة دوراً مماثلاً للفطام فيما بعد)[٨٦] .

ثم ، بين الواحدة والثالثة من العمر ، يتقدم الطفل خطوات واسعة في هذه الطريق . ففي أواخر العام الأول من عمره

يكتسب المقدرة على المشي ، وهذا حدث أساسي في حياته النفسية لانه يحوله من « شيء » ينقل من هنا الى هناك حسب مشيئة الراشدين الى كائن مستقل ، مقتدر ، يذهب الى حيث يشاء ويبدأ باكتشاف العالم الواسع[٨٧] . ويرافق ظهور المشي عند الولد نمو في جهازه العضلي يجعله قادراً على القيام بحركات متعددة تزداد مع الزمن دقة وقوة ، فيتوصل الى استخدام الاشياء باتقان وينقلها ويقذف بها ويحطمها ، اما هو فيعلو ويهبط ويركض ويقفز ويزحف ويقوم بحركات بهلوانية متنوعة . زد على ذلك اكتسابه النطق في تلك الآونة بالذات ، مما يعطيه قدرة جديدة من جهة اذ يمكنه من التعبير عن رغباته ، ومن جهة أخرى يساعده على التمييز بينه وبين الآخر اذ يفترض الكلام ازدواجية المتكلم والمخاطب[٨٨] . كل تلك المكاسب تشعر الطفل بوجوده المستقل وتقيم بينه وبين الام مسافة[٨٩] تثير فيه شعوراً مزدوجاً، اذ يتجاذبه الفخر باستقلاله الجديد من جهة والجزع من ابتعاده عن الام من جهة أخرى . لذا كثيراً ما نراه في عامه الثاني يرتمي في أحضان الوالدة ويتعلق باهدابها وكأنه يخاف من هذا النموّ الذي يبعده عنها ويحنّ الى استعادة الاختلاط الاول الذي كان قائماً بينه وبينها قبل الفطام . الا ان هذه الطريق مسدودة لحسن الحظ أمامه ، ولذا يضطر الى السير قدماً في حركة التمييز بين الذات والآخر ، ذلك التمييز الذي لا يمكن بدونه للحب ان يقوم .

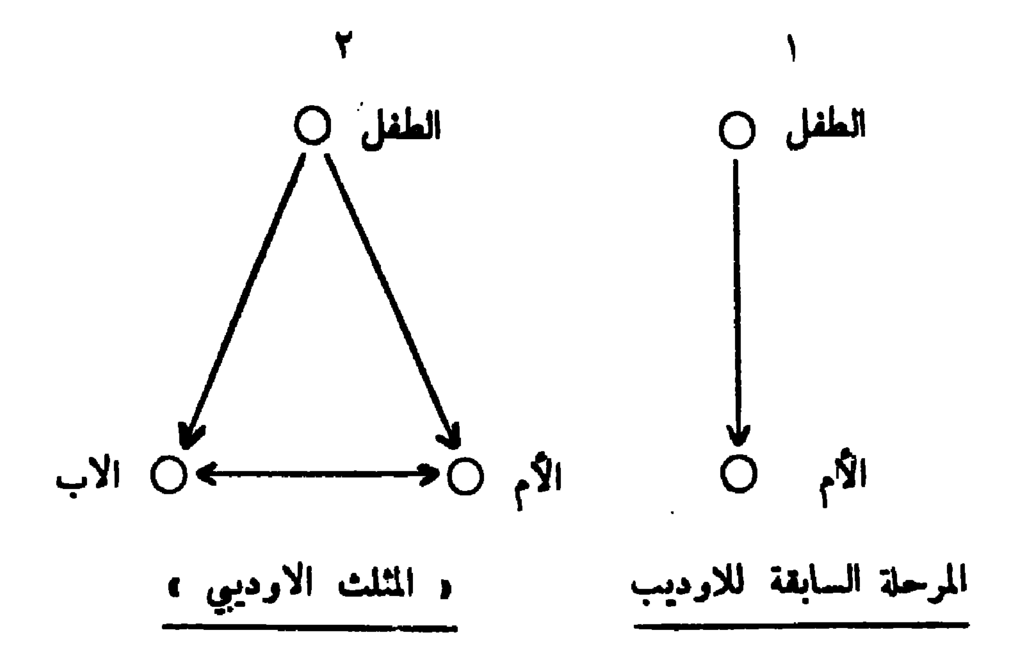
ويدفعه في هذه الطريق التقدمية الاصطدام الذي لا بد له ن يبرز ويشتد بينه وبين والدته في تلك المرحلة . من مظاهر هذا الاصطدام ان الولد اهوج في حركاته الناتجة عن حيوية فائضة ولكنها لا تزال فوضوية ، ولا بد للأم ، من أجل سلامة

الولد وراحة البيت وترتيبه ، ان تتصدى من وقت الى آخر لهذه الحركة الدائمة وتضع لها حدوداً (هذا أمر لا بدّ منه ، شرط ان يتمّ هو أيضاً بتفهم وتأنٍ) . كثيراً اذاً ما تجابه الولد « بلا » قولاً او ايماءً ، والولد ، كما بيّن الدكتور شبيتز ، يتبنى هذه « اللا » ويرتد بها ضد الام في ذلك العام الثاني من العمر الذي دُعي « سن اللا » . ولكن هذا الصراع بين « لا » و « لا » ، اذا لم يصبح مأساوياً بسبب عدم نضوج الام ، مهمّ ليدفع بالطفل في طريق اكتشاف الذات والآخر ككائنين متميزين ، متقابلين . ويبلغ هذا الصراع ذروته نحو الثالثة من العمر ، فيما سمّاه الدكتور هنري ڤاللون « بأزمة السنة الثالثة »[٩٠] ، وهي مرحلة هامة في تجاوز الطفل للاحتلاطية الاولى بينه وبين عالمه (syncrétisme) ، اذ انه بمخالفته وعناده يؤكد ذاته تجاه المحيط العائلي ، مبلوراً هكذا وعيه لذاته وللآخرين بأن ، في اختباره الصراع بين ارادتهم وارادته .

وبين الثانية والخامسة من العمر ، يكتشف الطفل الفرق بين الجنسين[٩١] ، مما له أثر هام فيما نحن بصدده . ذلك ان ادراك الولد لوجود فئتين من البشر ، هما الذكور والأناث ، يحول بينه وبين نزعته الى ردّ كل شيء الى ذاته . انه يدرك وجود من يختلف عنه وهذه مرحلة من مراحل اكتشافه الآخر والاعتراف بوجوده[٩٢] .

ومن جهة أخرى فنحو الثالثة من العمر يدخل الطفل في المرحلة الاوديبية التي تلعب دوراً أساسياً في تجاوزه لمركزية الأنا نحو الاعتراف بالآخر . ان ما سبق هذه المرحلة من انفصال وصراع بين الطفل والام كان لا بد له ، كما رأينا ، ان ينمي

تدريجياً شعور الطفل بأن أمه ليست مجرد امتداد له ، امتداد لأنا لا حدود له ، بل ان هذا الأنا محدود بوجود الآخر المستقل عن وجوده هو . ولكن هذا الوعي لا يكتمل الا اذا عاش الولد هذه الخبرة الانفعالية الحاسمة التي يتعمق بها الانفصال عن الام الذي بدأ بالولادة وتوسع بالفطام . تلك الخبرة هي الخبرة الاوديبية . يعيشها الصبي والبنت بشكل مختلف ولكن نتيجتها عند كليهما متشابهة فيما نحن بصدده . فلنتوقف عند وضع الصبي لانه أبسط . عندما يبلغ الصبي المرحلة الاوديبية ، فأنه في أعماق شعوره ، اللاواعي الى حد بعيد ، لا يزال يعتقد ان أمه هي امتداد له . هذا رغم تكذيب الواقع المتكرر لهذا الاعتقاد ، هذا التكذيب الذي سبق ورأينا بعض اشكاله ، يُضاف اليها ما يحدث كثيراً في السنين الثلاث الاولى من العمر ، من بروز منافس للطفل بشكل أخ وأخت يولدان بعده فينافسانه على حب الوالدة ويزعزان اعتقاده بأنه مركز الكون . رغم تكذيب الواقع هذا لا يزال يبدو لشعور الطفل العميق ، هذا الشعور الذي لم يزل أسير « مبدأ اللذة » ولم يخضع « لمبدأ الواقع » ، حسب تمييز فرويد ، انه يكفيه ان يشتهي الام ليمتلكها ويستأثر بها . ولكنه ، عند خوضه الصراع الاوديبي ، لا يلبث ان يرتطم بصخرة الواقع فيرتد خائباً . ليس لأن الام ترفض ان تستجيب لرغبة الطفل في امتلاكها وحسب ، بل لان عاملاً جديداً بالغ الأهمية يلعب دوره هنا ، وهو بروز الأب الذي كان الى حد ما محتجباً وراء الام ، في نظر الطفل ، الى ذلك الحين . أما الآن فالعلاقة لم تعد ثنائية ، بل مثلثة : هذا هو « المثلث الاوديبي » الشهير .



ذلك ان رغبة الولد في امتلاك الام تصطدم بوجــود الأب الذي هو حسب تصور الطفل « مالكاً » للأم (لان الطفل لا يمكنه بعد في هذه الفترة ان يعي العلاقة بين الاشخاص الا على صورة الامتلاك)[٩٣] . هكذا يرى الطفل نفسه مضطراً ان يقيم الحساب لهذا الحاجز المنتصب بينه وبين امتلاك الام[٩٤]. انه يودّ ان يزيح من دربه هذا المنافس له على حب امه ، ولكنه بآن يحب هذا المنافس ويُعجب به ويرهبه . لذا تتجاذبه مشاعر متناقضة يشكل اجتماعها تلك « العقدة » التي هي « عقــدة اوديب » . ويصبح الولد مسرحاً لصراع داخلي لا واع الى حد بعيد لانه يجري في اعماق الشعور (ولو انــه يتجلى بكلمات وتصرفات معبّرة يلاحظها المرء بسهولة عند الاطفال) ولكنه حاسم بالنسبة لمستقبل النمو . في النهاية يتحقق الطفــل من أن الام لها مرجع غيره وهو الأب ، وانه لا يمكنه ان يستهين بهذا المرجع وأن يجعله كأنه غير موجود ، فيتخلى اذاً عــن رغبته

بامتلاك الام . ولكن ما يهمنا بنوع خاص فيما نحن بصدده ان اكتشاف الولد بأن للأم مرجعاً غيره يعني وعيه بأن لـلام شخصية قائمة بذاتها ، مستقلة عن هواه[٩٥]. وهذا كسب عظيم يتوّج تلك المسيرة التي حاولنا تتبعها عند الطفل ، نحو اكتشاف الآخر كآخر[٩٦].

ثالثا – انتقال من الاستيلاء الى العطاء[٩٧]

هذا الاكتشاف التدريجي للآخر كذات مستقلة يرافقه تحول مما دعاه الدكتور بيشون Pichon الموقف الاستيلائي (Captatif) الى ما دعاه الموقف المعطائي (oblatif) . فالطفل بادىء ذي بدء لا يسعه الا ان يأخذ[٩٨]. حياته الانفعالية مركّزة في البدء على الفم ، كما رأينا ، وكأنه بجملتة فم يبتلع الاشياء ، يستهلكها ، يمتص حليب الام ودفئها وحنانها بآن ، في حركة متجهة مـن الخارج الى الداخل (centripète) لا تقابلها حركة معاكسة من الداخل الى الخارج (centrifuge)[٩٩]. وفي المرحلة التالية المركّزة على الافراز (stade sadique anal) لا يزال موقف الاخـذ مسيطراً ، ويتخذ عند ذاك شكل التملك ، شكل الرغبة في استعباد الامّ وأسرها والسيطرة عليها[١٠٠]. لذا نقول بالعامية عندما نشاهد طفلاً يتعلق بأهداب امه قصد تقييدها اليه واحتكارها ، انه « يتسلط » عليها والكلمة هذه معبّرة عن نزعة التملك التي نحن بصددها[١٠١]. ولكن حركة النمو تدفع الطفل الى ان يتجاوز تدريجياً موقف الأخذ هذا المعبّر عنه بالابتلاع اولاً ثم بالتملك . فأنه على قدر اكتشافه شخص الآخر كمتميز عنه يصبح قـادراً على المبادلة ، يتمرس على العطاء . يبادل الام ابتسامتها اولاً ثم يتوصل في اواخر السنة الاولى من عمره الى مبادلتها تعابير الحنان

من قبل وغيرها[102]! وعندما يكتشف ، بين الواحدة والثالثة ، ان ارادة الأم متميزة عن ارادته ورغباتها عن رغباته ، يكتشف بالتالي ان لا بد له ان يضحي بشيء من رغباته ، في سبيل ارضاء الام والمحافظة على عطفها[103]! هكذا يتمرس على التضحية[104]! صحيح ان تضحيته غير خالصة بعد في هذه المرحلة لانها ناتجة الى حد بعيد عن خوفه من فقدان عطف الام ، ولكنها ، على ذلك ، بذار كل تضحية . هكذا نراه مثلاً يقبل رغم غيرته ان يشارك أمه حبها للمولود الجديد ، مرتضياً ان يحب هذا المنافس المكروه في الأساس ، انسجاماً مع حب الأم له . هذا الموقف عينه يتجلى في ذلك المجال الذي كثيراً ما يحتدم فيه الصراع بين الطفل ووالدته ، الا وهو مجال تربية النظافة أي تربية وظائف الافراز وجعلها خاضعة لأوقات وقواعد[105]. هنا تتعارض ارادة الام المربية مع رغبات الطفل الذي يود ان يتصرف بجسده كما يحلو له فيفرز كيفما يشاء وحين يشاء غير خاضع لقاعدة أخرى سوى لذته وارادته الناشئة . ألا انه يتوصل ، اذا سارت الأمور سيرها الطبيعي ، الى قبول النظام الذي تريده الام ان يخضع له ، وذلك من أجل الحفاظ على محبتها وعطفها ، « فيعطيها » افرازات جسده كأثمن شيء لديه في هذا العمر لانها « عمله » وامتداد لشخصه وموضوع اهتمام أمه[106] (ولم تصبح بعد بالنسبة اليه موضوع اشمئزاز كما هي الحال فيما بعد)[107]. ان من شاهد طفلاً او طفلة حوالى الثانية من عمرهما « يقدمان » للوالدة باعتزاز وفرح ما « صنعاه » في « الأرضية » يدرك قيمة هذه « التقدمة » بالنسبة لهما (تلك القيمة التي يحافظ عليها العقل الباطن حتى عند الراشدين اذ يجعل توازياً – يعبّر عنه مثلاً التفسير الشعبي للأحلام – بين افرازات

الجسد والغنى) ويعي كيف ان الطفل يبلــغ هنا ، كما بيّن الدكتور ولفريد دام[١٠٨]، مرحلة هامة في الانتقال من الأخذ الى العطاء وفي التمرس على التضحية[١٠٩].

ولكن عندما يبلغ اكتشاف الآخر كآخر احدى ذرواته عند حلّ المشكلة الاودوبية ، حوالى السادسة من العمر ، عند ذاك تنمو ايضاً النزعة المعطائية نمواً ملموساً[١١٠]. فالطفل الذي كان بوده ان يتملك والدته ، ان يستولي عليها ، يتخلى عن هذا الحلم ، انه يرتضي بأن لا تكون أمه « له » ويكتفي بأن يكون تعلقه بها تعلق رقة واخلاص وانعطاف[١١١]. هكذا يبدأ باكتساب الصفات التي سوف يتميــز بها الحب الراشد (stade génital) الذي لا يقوم الا اذا اقترن الحنان بالشهوة وهــذبها ، وأصبح المحبوب « موضوع اعتبار » حسب تعبير فرويد ومهماً بحد ذاته[١١٢].

هذا الاعتبار للآخر الذي بــدأ الطفل يسمو اليه في حبّه نتيجة لنموه العاطفي في هذه المرحلة ، قــد يتجلى في نوع من العلاقات الغرامية الخالية من الشهوة يعيشها الصبية مع رفيقات من عمرهم في المرحلة اللاحقة ، الممتدة من السادسة الى المراهقة ، تلك المرحلة التي يزهر فيها ما دعــاه الشاعر « فردوس الحب الطفولي الاخضر » («le vert paradis des amours enfantines»)[١١٣]

ذلك انه بعد عواصف المرحلة الأودوبية ، تمتد فترة هادئة نسبياً يخمد فيها الى حد ما تأجج الغرائز . انها فترة الكــون (période de latence) التي ينصرف فيها الولد الى بناء شخصيته والى الاستعداد لقفزة المراهقة . في هذه الفترة ينضج عقل الولد ، فيصبح قادراً على المنطق والموضوعية ، وكذلك تنمو وتتبلور حاسته الاجتماعية فيصبح قادراً على الاندماج في جماعــات من اترابه ومشاركتها حياتها ونشاطها . هذان العاملان ، أي النضوج

العقلي ونمو الحاسة الاجتماعية يُضعفان في الولد مركزية الأنا وبذا يساعدانه على متابعة الخط الذي رأينا حياته الانفعاليـة تسلكه حتى الآن ، بانتظار المرحلة الثانية لنضوج الجنس التي سنتعرض لها الآن ، تلك المرحلة الممتدة بين أول المراهقة وبلوغ الرشد .

٢ – المرحلة الثانية

في هذه المرحلة التي يتكوّن فيها رجل او امـرأة الغد في طفل او طفلة الامس ، والتي دعاها روسّو لهذا السبب « ولادة جديدة » ، تلك الحقبة التي تبلغ فيها عملية النضج ، البادئـة مع الحياة ، مرحلتها الحاسمة[١١٤] ، تتخذ النزعة الجنسية ايضـاً ، المستقيظة بتأثير النشاط الهورموني[١١٥] ، وجهها النهائي ، وجهها الراشد[١١٦] (هذا على قدر مايصبح الانسان راشداً ، لأن الرشد حد مثالي يقترب منه اكثر او اقل ولكنه لا يُبلغ بالكلية) . ويتخذ هذا التطور الحاسم للنزعة الجنسية الاتجاهات الثلاثـة المتكاملة التي وصفناها في المرحلة الاولى[١١٧] ! اي انه ، هنا ايضاً ، لكن على صعيد ارقى ، يسير من عشق الذات الى عشق الآخر ، ومن مركزية الأنا الى الاعتراف بالآخـر ، ومن الاستيلاء الى العطاء .

اولا – انتقال من عشق الذات الى عشق الآخر[١١٨]

ان نضوج الاعضاء التناسلية في هـذا العمر ، والافرازات الهورمونية التي تشيعها غددها في الجسم وتؤثر بهـا على الجهاز العصبي ، توقظ عند المراهق او المراهقة النزعة الجنسية التي كانت كما رأينا ، راقدة الى حد ما منذ تجاوز المرحلة الاوديبية . ألا

ان هناك تفاوتاً بين نضج الاعضاء التناسلية الذي سرعان ما يجعل من المراهق رجلاً ومن المراهقة امرأة على الصعيد البيولوجي وبين وضع النزعة الجنسية التي تبقى الى حد بعيد مرتبكة برواسب الطفولة[119]. فنضوج الاعضاء التناسلية سرعان ما يجعل المراهق قابلاً لاتصال جنسي بالغ بالاخر ، ولكن نزعته الجنسية متأخرة عن ركب نموه الجسدي اذ لا تزال الى حد ما عالقة بعشق الذات ، غير متجهة كلياً الى الاخر . لذا نرى المراهق يمارس بنسبة كبيرة ، حسب الاحصاءات[120]، العادة السرية او الاستمناء التي هي شكل من التلذذ الطفلي بالجسد الذاتي (auto - érotisme) رأينا الطفل يمارسه حوالى الثالثة من عمره[121].
اما المراهقات فيمارسن العادة السرية بمعناها المعروف بنسبة اقل[122] ولكنهن كثيراً ما يستعضن عنها بنوع من الاستمناء العاطفي[123]، وهو ذلك التمتع النرجسي بالاعجاب الذي تثيره مفاتنهن عند الجنس الاخر ، ذلك التلذذ بصورتهن كما يرينها منعكسة في انظار الآخرين او في المرآة[124]، ذلك اللهو بمشاعرهن الجديدة . انهن يعبثن بقلوبهن ، حسب تعبير دوكونشي ، كما يعبث المراهقون باجسادهم ، وفي كلتا الحالتين عشق طفلي للذات وتلذذ بها[125].

ولكن كل حركة نمو المراهق ، إن على الصعيد البيولوجي او على الصعيد النفسي ، تدفعه الى تجاوز هذا الوضع الطفلي في حياته الجنسية والى الاتجاه صوب الآخر[126]. صحيح ان المراهق نرجسي بنوع خاص[127]. انه بمعنى ما نرجسي اكثر من الطفل لأن الطفل لم يميز بعد أناه عن الخارج او لم يميزه كفاية ، اما المراهق فقد اكتشفه وتعشقه بوعي . لذا كان نرجس في الاسطورة مراهقاً[128]. ولكن المراهق ، من جهة ثانية ، يتألم من عزلته

ويود ان يخرج منها بلقاء الآخر ، ذلك الآخر الذي أصبح مؤهلاً لاكتشافه كشخص كما اكتشف ذاته[١٢٩]. الا انه في حركته هذه يبدو وكأنه لا يجسر ان ينتقل فجأة من ذاته الى هذا الآخر. واذا به يسعى الى موضوع انتقالي يكون بمثابة صلة بينه وبين الجنس الآخر[١٣٠]. انه ، كما يقول العالم النفسي الكبير اوسفالد شوارز في كتابه « سيكولوجية الجنس » ، شبيه بانسان لم يجسر على اجتياز نهر عريض بالقفز من ضفة الى أخرى ، فألقى حجراً في وسط النهر كي يعبر بواسطته الى الضفة المقابلة[١٣١]. هذا الموضوع الانتقالي هو كائن من الجنس نفسه ، ذلك الكائن الذي هو آخر بالنسبة للمراهق (لانه شخص آخر) ولكنه شبيه به (لانه من جنسه) . وكأن المراهق يشاهد فيه صورته ، فيتعشق فيه هذه الصورة ويوفّر على نفسه مشقة ومجازفة تجاوز ذاته بالكلية باتجاه آخر يكون آخراً جذرياً[١٣٢]. لذا ينتشر في المراهقة الميل الى الجنس نفسه ، الذي لا يتخذ الا نادراً شكل الاتصال الجنسي الفعلي ولكنه في معظم الاحيان ، وخاصة عند المراهقات ، عبارة عن مجرد علاقات عاطفية تتخذ شكل العشق ، وقد تعبر تلك العلاقات عن ذاتها ، خاصة عند المراهقين ، بمظاهر جسدية[١٣٣].

ولكن هذا الوضع محكوم عليه ، بداعي طبيعته الانتقالية ، ان لا يستمر ، هذا اذا سارت الامور في مجراها الطبيعي[١٣٤]، فلا يلبث ان يزول ليفسح المجال امام الانجذاب نحو الجنس الاخر والرغبة في الاتصال به . وبالطبع تلعب ظروف الحياة دوراً كبيراً في هذا التطور ، فتحدد الى حد بعيد سرعة ومقدار تجاوز المراهق لهذه المرحلة الانتقالية . فاذا لم يُتح للمراهق او للمراهقة سوى معاشرة أفراد جنسه ، كما يجري مثلاً في بعض

المدارس الداخلية التي يكون فيها اتصال الطلاب او الطالبات بالخارج شبه معدوم ، او في بعض المجتمعات التي تحتم تقاليدها الفصل القطعي بين الجنسين ، يصعب على المراهق تجاوز مرحلة الجنس المثلي وتؤكّد فيه النزعة الجنسية المثلية الى حد انها قد تترك فيه رواسب قوية مدى الحياة او قد تدفعه الى الشذوذ الجنسي[١٣٥]. هنا تبدو أهمية الاختلاط بين الجنسين - شرط ان يكون هذا الاختلاط واعياً - لمساعدة المراهق على السير قدماً في نموه العاطفي متجاوزاً الجنس الذاتي الطفلي (auto-érotisme) ، والجنس المثلي الذي هو امتداد للاول لانه لا يتجه الى الاخر الا من حيث انه صورة للذات (allo-érotisme homosexuel) ، ليبلغ الميل الناضج الى الجنس الاخر (allo-érotisme hétérosexuel)[١٣٦]. ومما يجدر ملاحظته ان هذا الاختلاط لا يساعد المراهق او المراهقة على اكتشاف الجنس الآخر وحسب ، بل وبالحركة نفسها ، على اكتشاف الآخر كآخر[١٣٧]، هذا الاكتشاف الاساسي لاكتمال الشخصية الانسانية بخروجها من قوقعتها ، وبالتالي لاكتمال الحب الذي لا يقوم الا اذا تجاوز المرء ذاته الى آخر . يقول جان كلود بارّو بهذا الصدد في مذكراته : « بالنسبة للرجل ، المرأة هي « الآخر » ، « المختلف » ؛ اما رفاقه من جنسه ،... فليسوا سوى « امثاله » ويضيف : « رغم نزوات المراهقة ، فقد ساعدتني الفتيات ، اذ كشفن ذواتهن لي كأشخاص ، على ادراك حقيقة وجود اشخاص غيري في الكون »[١٣٨].

هذا ما يقودنا الى المظهر الثاني من مظاهر نمو الجنس في المراهقة ، ألا وهو لانتقال من مركزية الأنا الى الاعتراف بالآخر .

ثانياً ـ انتقال من مركزية الانا الى الاعتراف بالآخر[139]

ان اكتشاف المراهق للجنس وانجذابه اليه لا يعني بحد ذاته انه اصبح قادراً على اقامة علاقة حقيقية صحيحة بين شخصه وشخص الآخر . فامام هذه العلاقة تنتصب عقبة مركزية الأنا، تلك المركزية التي ورثها المراهق عن الطفل ولكنها اتخذت عنده شكلا اكثر حدة . فالطفل يعيش أناه دون ان يعيه او دون ان يعيه تماماً ، اما المراهق فقد اكتشف أناه وُشغف به . ولكنه ، بقدر وعيه لأناه المتميز ، وعى عزلته ، كما سبق واشرنا ، وبالتالي شعر بحاجة الى الخروج منها بلقاء الآخر . ومن جهة اخرى ، فأن وعيه لفرادته جعله اكثر قابلية لاكتشاف فرادة الآخرين.[140] من هنا ينشأ صراع بين النرجسية المنغلقة التي لا تقيم وزناً للآخر كآخر بل تراه غذاءً لها ليس الا ، وبين الاعتراف بالآخر كشخص فريد ، مهم بحد ذاته . هذا الصراع يتخذ النزعة الجنسية مسرحاً خاصاً له ويؤول في احسن الاحوال الى انتصار الاعتراف بالآخر ، في العلاقة الجنسية ، كشريك فريد[141].

فلأول وهلة ينزع المراهق الى الاتصال بالجنس الآخر من حيث هو ، دون اقامة وزن للاشخاص . لذا « ينقّل فؤاده حيث شاء من الهوى » ، غير مكترث سوى للذته سيّان ان جناها هنا او هناك ، كما ان الفراشة تنتقل من زهرة الى زهرة لا يهمها من كل زهرة سوى رحيقها . هكذا ينتقل المراهق في حبه من هذه الى تلك من الفتيات ، لا يهمه في كل منهن سوى تلك الانوثة التي تثير فضوله وتوقظ نشوته[142] في سلوك المغازلة

(flirt) هذا ، في تلك العلاقات الغرامية العابرة ، لا ُيعتبر الاخر الا كوسيلة لقضاء حاجة وبلوغ اللذة واثارة المشاعر[١٤٣].
يقول دوكونشي : « ما يطلب من الاخر ، اياً كان ، هو ان يكون وسيلة لقلب وجسد يسعيان الى الاثارة ، الآخر يستخدم من اجل الاثارة » . ويقول اوريزون « ان الآخر يعاش (في منظار كهذا) كوسيلة لتهدئة توتر او اشباع رغبة » . الاخر ، في هذا المنظار ، ُيعتبر الى حد بعيد شيئاً ُيستهلك ، هذا ما ُيعبّر عنه في كثير من التعابير الشائعة التي يذكر دوكونشي بعضاً منها ، مثلاً : « لقد فقدت واحدة ، لكنني ساستعيض عنها بعشرة غيرها»[١٤٤] . هكذا فان هذا السلوك ، وان اتجه الى لآخر ، لا يستهدفه من اجل نفسه ، يقول دوكونشي : « الآخر ُيستهدَف ولكنه لم ُيستهدف بعد من حيث انه آخر ولأنه الآخر » . لذا فمغازلة المراهقين تعتبر بحق ، كما يقول دوكونشي واوريزون ، سلوكاً ذا طابع استمنائي الى حد ما ، لأنها سعي الى لذة انعزالية وسعي يحتجب فيه الآخر كآخر وبالتالي لا يمكنه ان يؤول الى مشاركة حقة . انه بالتالي سلوك غير ناضج ، ذا طابع طفلي .

ان المراهق الذي ينصرف بافراط الى سلوك كهذا يتعرض لخطر التوقف عنده[١٤٥] وتخليد مرحلة هي بطبيعتها مرحلة انتقالية ليس الا ، تدفع حركة النمو الى تجاوزها . فالمراهق يشعر في قرارة نفسه بالفراغ الذي تحمله تلك العلاقات العابرة السطحية التي تستهويه[١٤٦] ، لذا ينزع الى علاقات اكثر اصالة وعمقاً . هاجس الآخر من حيث هو آخر يزداد تدريجياً عنده ، كما بيّن اوريزون ، وبالتالي يخفّ تدريجياً ذلك الطابع الاستمنائي الذي تتسم به مغامراته ، فيما يشتد سعيه الى لقاء حقيقي بالآخر .

اما تتويج حركة النضج هـــذه فهو ظهور الحب لشخص واحد ، معين ، من الجنس الاخر ، شخص يبدو ليس مجرد ممثل لهذا الجنس وحامل لصفاته بل كشخص كامل وفريـــد ، يتسم بطابع جنسه ولكنه يتجاوز وظيفته الجنسية . عند ذاك « يتخذ الجنس ، كما يقول اوريزون ، معناه كتعبير عن علاقة عميقة مـــن شخص لشخص ولا يعود يظهر ، الا بشكل ضعيف ، بالاستقلال عن هذه العلاقة » . « هذا هو ، يقول دوكونشي حب الاخر ومن اجل الاخر ... الجنس يصبح مكاناً ممتازاً لهذا العطاء وهذه المقدرة على التقبل اللذين هما ملازمان للعطائية التي تتميز بها الشخصية الراشدة » . يتوصل المراهـــق في احسن الاحوال ، الى تلك المرحلة الناضجة التي يمده لها نموه العاطفي ، يساعده في تطوره هذا تمرسه على الانفتاح الى الاخرين عامة ، على الانتباه اليهم وتبني حاجاتهم ومشاكلهم ، كما بيّن ميشال كواست في كتاب تعرض فيه بشكل واقعي لنمو المراهـــق ومشاكله بصورة يوميات مراهق وهمي سماه « داني »[١٤٧]. وقد بين مارك اوريزون انه غالباً ، على ما يبدو ، يستعجل تطور المراهق نحو الحب الناضج لقاؤه بشخص من الجنس الاخر تتبلور حوله مشاعره[١٤٨]!

ثالثاً ــ انتقال من الاستيلاء الى العطاء

هذا التركيز المتزايد على شخص الآخر لا بـــدّ وان يرافقه تحول تدريجي من موقف الاستيلاء الى موقف العطاء . فبقـــدر ما يبدو الآخر مهماً بحد ذاته ، بقدر ذلك يصبح هاجس المرء لا ان يأخذ منه وحسب بل ان يمنحه من جهته ما استطاع ،

ان يوفّر له السعادة والرضا . هذا هو موقف المراهق اذا بلغ مرحلة التعلق بشخص من الجنس الآخر من اجل نفسه . انه يسعى لارضائه بشتى الوسائل وفي هذا السبيل يتعلم ، كما يقول هادفيلد ، التهذيب والاناقة والذوق ويسعى الى تثقيف نفسه[١٤٩]. انه يبدي تجاهه شتى معاني الصداقة من اخلاص وحنان وحماية[١٥٠].

كثيراً ما يصطدم موقف الحب المعطائي هذا عند المراهقين بنزعة جنسية لا تزال الاستيلائية مسيطرة عليها ، مما يؤول الى فصم مؤقت بين الحب والشهوة[١٥١]. هذا ما نرى نموذجاً عنه في نص لبيار سورا وهو مربٍّ فرنسي شاء ان ينقذ المراهقين الجانحين فعاش معهم وفيما بينهم وروى لنا خبرته الخطرة والمثيرة هذه في كتاب عنوانه « لما هذا الغضب كله ؟ » . يحدثنا الكاتب عن الاتصالات الجنسية بين هؤلاء المراهقين الذين عايشهم ، وعن السطحية التي تجعل منها احتكاكات لا لذة حقيقية فيها لانها لا تحمل أي اتصال شخصي[١٥٢]. هؤلاء لا يعرفون الحب لان احداً لم يحبهم[١٥٣]، ولذا فاتصالاتهم الجنسية مجرد تخدير لشعورهم بالعزلة يلجأون اليه اذا اصبح السأم لا يُطاق . ولكن ها أن احدهم ، ماركو ، وقد كان مشهوراً بمغامراته الغرامية ، « اهتدى » الى الحب أثر لقائه بفتاة من نوع لم يعهده : « لقد حاول ماركو ان يغازلها ، ولكنه أدرك ، لأول مرة في حياته ، ان هناك فتيات يستطعن التفكير بغير اللذة دون ان يفقدن شيئاً من أنوثتهن ولطفهن ، بل بالعكس . ان بول تجذبه اليها . لا شك انه يكتشف الحب .

« لقد اقر أمامي : « انها هائلة ، هذه الفتاة . انها المرة الأولى التي أرى فيها واحدة مثلها . أمر غريب ، لا أرغب في

تقبيلها . ان أكون معها ، هذا يكفيني » .

« ميركا ونينيت وكثيرات غيرهن أصبحن بعيدات جداً عن فكره الان . لقد فاجئته أكثر من ليلة وحده ، وكان يبـدو سعيداً بذلك »[١٥٤].

الا ان اكتمال النضج لا يتم الا اذا تجاوز المراهق هذه المرحلة التي تشوبها رومنطيقية تنظر الى الآخر لا حسب واقعه بل كما يصوره الخيال . في آخر المطاف يجب ان تندمج الشهوة بالحنان ، الرغبة بالصداقة . يقول فرويد بهذا الصدد : « ان ما يؤمّن للحياة الجنسية صفتها الطبيعية هـــو اجتماع ... تيارين : تيار الحنان وتيار الشهوة »[١٥٥]. هكذا يكتمل الجنس بتصعيـده في الحب ، كما يتحقق الحب بتجسده في الجنس .

بمجمل الكلام ان المراهق ، بعد ان يتجه نحو الانوثة بشكل عام ، منقّلاً هواه من فتاة الى أخرى ، سعياً وراء الاحاسيس المثيرة ، « عاشقاً العشق » ، حسب تعبير اوغسطينوس المغبوط في « اعترافاته »[١٥٦]، يستطيع ، اذا بلـغ النضج الكافي ، ان يتوقف عند فتاة معينة تصبح بالنسبة اليه كائناً فريداً يستقطب قلبه وغريزته بآن ، فيتآلف في حبه لها الشهوة والحنان ، الرغبة في الأخـــذ والرغبة في العطاء ، ويحسّ ان اسعادها ضروري لسعادته وان مصيرها مهم كمصيره[١٥٧]. هكذا يبلغ الجنس بالحب حقبته الراشدة[١٥٨].

جـ- الـزواج والحبّ

هذا الحب الراشد الذي بـه يتحقق مرمى الجنس الاتحادي وتتوج به حركة النمو ، يجد مكانه الطبيعي وتعبيره الكامل في مؤسسة اجتماعية تنسجم مع طبيعته ومتطلباته . تلك المؤسسة هي الزواج . يجدر بنا ان نتوقف الآن عنـدها لنبحث بها لا من حيث هي مؤسسة لها نواميسها الخاصة بل من جهة ارتباطها بذلك الحب الذي به يبلغ الجنس غايته الانسانية . من هذا لمنظار يمكننا ان نقول ان الزواج هو اطار الحب مضيفين بان هذا الاطار لا يمكن بحال من الاحوال ان يغني عن المضمون![159] .

١ – الزواج اطار الحب

الزواج إطار الحب لانه وعد يُكرّس امام الملأ صفات الحب لاساسية ، ولأنه مكان نمو الحب وتعميقه ، اخيراً لأنه مـكان خصب الحب![160] .

اولا – الزواج وعد يكرس امام الملأ صفات الحب الاساسية

قلنا ان الحب الاصيل هو اكتشاف للآخر في فرادته وتعهده في بعده الزمني . قلنا ايضاً ان هاتين الصفتين تحتاجان ، لـكي تثبتا ، التزاماً كلياً من الشخص تجاه الشخص الآخر ، التزاماً تتناغم فيه الارادة والشعور ، وان هذا الالتزام يتم بوعـــد .

ولكن الزواج هو ، في جوهره ، ذلك الوعد الذي يكرّس صفات الحب الكامل . انه وعد بأن يكون الحب واحداً ، هذا ما يقتضيه اكتشاف الاخر كشخص فريد ، وبان يكون رباط الحب غير منفصم ، هذا ما يتطلبه تعهد الآخر في بعده الزمني[161] بدون هذا الوعد لا يمكن لالتزام المحب تجاه محبوبه ان يكون كاملاً ، وبالتالي لا يمكن لاتجاه الشخص نحو الشخص الآخر ان يبلغ منتهى الاصالة ، وبعبارة اخرى لا يمكن للحب ان يكتمل ويحقق جوهره العميق . الحب دون وعد لا يزال عرضة لتقلبات الهوى ، بالوعد فقط يتجاوز الهوى ليصبح حباً بكل ما في الكلمة من معنى : « ان وعد الامانة ، في الزواج ، يحوّل الهوى الى حب »[162].

وعد الزواج علني ، احتفالي ، يتلفظ المحبان به امام ممثلي المجتمع (المجتمع المدني او الجماعة الدينية او كليهما) وبحضور شهود . ذلك لأن الانسان بطبيعته كائن اجتماعي ، ولذا لا يتخذ وعده ملء قوته ورسوخه الا اذا أعلن امام الجماعة . بوعد كهذا تكتمل في الجنس الصفة الاجتماعية التي يتميز بها عند الانسان ، اذ يرتبط المرء صميمياً بآخر ، امام الآخرين ، طالباً من الجماعة البشرية ان تشهد على هذا الارتباط وان تعترف به[163].

ثانياً – الزواج مكان نمو الحب وتعميقه

هناك اعتقاد شائع الا وهو ان الزواج عدوّ الحب اللدود ، انه قتّال للحبّ . هذا يصح بالنسبة لبعض مفاهيم الزواج كما سوف نوضح فيما بعد . الا انه مردود اذا فهمنا الرباط الزوجي في اصالته[164]. فالزواج ، في هذا المنظار ، ليس مكرساً لصفات الحب الاساسية وحسب ، كما راينا ، بل انه مكان نمو الحب وتعميقه.

ذلك انه المكان الذي يُكتشف الآخر فيه على حقيقته وبالتالي يُحبّ من أجل نفسه[165]. فالحب قبل الزواج مشوب دوماً، الى حد ما، بالخيال. كل المحبين يتعشق صورة يرسمها في ذاته عن الآخر، صورة تنبع الى حد ما من خياله وتتبلور فيها، كما بيّن ستاندال في كتابه الشهير عن الحب، رغباته واحلامه. انه، الى حد ما، وايا كان اخلاصه، يحب في الآخر صور هواه، انعكاس رغبته[166]. ولكن الزوجين يعيشان جنباً الى جنب مدى العمر، لذا لا بد للصورة التي نسجها خيال كل منهما عن الآخر ان تصطدم عاجلاً او آجلاً بحقيقة هذا الآخر، لا بدّ لكل منهما ان يدرك ان الآخر ليس ذلك الكائن الشبه الهي الذي «يملأ القلب» ويسكب لمحبه سعادة لا تُحدّ، انما هو كائن بشري محدود ومصدر خيبة لمن كان ينتظر منه أكثر مما بوسعه ان يعطي. تلك الخيبة لا بد لها من أجل تنقية الحبّ من عنصر الهوى. ذلك ان الهوى لا يحب الآخر على حقيقته، انما يتعشق فيه «حلم خيال» يثير نشوته[167]. الهوى مركّز على هذه النشوة وليس على الآخر، انه نرجسي بطبيعته. لذا لا يحب الآخر الا عن بعد، لان هذا البعد يفسح المجال لفعل الخيال. هذا ما عبّرت عنه أسطورة الاميرة البعيدة. أما الزواج فهو المكان الذي يُحبّ فيه «القريب»، ذلك القريب الذي بدا معرّى من ذلك الجلباب الساطع الذي كساه به سراب الخيال. هو المكان الذي يُضطر المرء فيه ان ينقي حبه لكي يدوم، فيحبّ الآخر من أجل نفسه لا من أجل الاحلام التي جلببه بها[168]. هكذا ينمو الحبّ ويتعمق من خلال امتحان الحياة المشتركة في الزواج وتأزمها. هذا ما بيّنه ببلاغة وعمق الفيلسوف الشخصاني المعاصر دنيس دي روجمون في كتابه الشهير:

« الحب والغرب » ، يقول : « تلك هي الامانة : هي قبول نهائي لكائن بحد ذاته ، محدود وواقعي ، يختاره المرء لا كذريعة لنشوته او موضوع لتأمله ، بل كوجود فريد ومستقل الى جانبه ... »[١٦٩] وأيضاً : « ان يختار المرء امرأة ليجعل منها زوجته ، هو ان يقول للآنسة فلانة : « أريد ان أعيش معك كما أنت »[١٧٠].

هذا يعني ان الزواج يجابه كلاً من المحبين بنقائص الآخر . تلك النقائص ، التي لا يخلو منها كائن بشري ، كانت غائبة عن أنظار المحب في عهد الهوى ، او ، في حال ظهورها ، كانت تبدو لطيفة ، محببة . فالهوى ، كما هو معلوم ، يحوّل العيوب نفسها الى كمالات كما بيّن موليير في مشهد شهير من مسرحية له[١٧١]. ولكن الحياة المشتركة في الزواج تسلّط الاضواء على تلك النقائص ، لا بل تضخّمها بالاحتكاك المستمر[١٧٢]. عند ذاك يمرّ المحبّان بتجربة قد تكون قاسية : فأما رفض الآخر بسبب عيوبه ، مما يؤول الى خمود الحب وحتى الى فصم الزواج[١٧٣]، وأما ان « يقبل أحدهما الآخر بحرارة وتفهم »[١٧٤] على علاته[١٧٥] (هذا لا يعني بالطبع الموافقة على هذه العلات)[١٧٦]، مما يدفع بالحب الى الامام اذ يجعله أكثر تجرداً . هنا ايضاً نرى ان الحياة المشتركة في الزواج هي بمثابة تحدٍ للحب : فأما ان يخمد او يموت واما ان يتقدم وينمو[١٧٧]!

من جهة أخرى الحياة الزوجية محك للحب ومدعاة لنموه لانها دعوة دائمة الى تحقيق وحدة حقّة بين المحبّين . ذلك ان لكل من هذين ، قبل ان يتعايشا ، أناه الذاتي المستقل . صحيح ان كلاً من الذاتين كان متجهاً الى الاخر ، تائقاً اليه ، الا انه كان يملك خطّ رجعة يستطيع ان ينطوي اليه اذا شاء . الا

ان الحياة المشتركة تقطع الطريق أمام خط الرجعة هذا[178]، وتدفع الذاتين الى الاندماج في ذات جديدة تجمعهما كليهما متجاوزة فردية كل منهما . هذا الأنا وذاك يجب ان يلتقيا في « النحن » الزوجي[179]. هذا لا يعني بالطبع ان تزول الفوارق بين الزوجين ، ان يبطل كل تمييز بينهما[180]. ان حلاً كهذا – على افتراض انه ممكن – يعني بالعكس موت الحب ، لان الحب لا يقوم الا على اتحاد شخصين متميزين[181]، اذ ان هذا التمييز وحده يبقي على حركة العطاء المتبادل . لذا يقول جان لاكروا : « ان حباً يريد نفسه خالياً من صراع ليس سوى حب للذات متنكراً »[182]. ان الابحاث الحديثة في الحياة الزوجية تشدد على الدور الايجابي الذي تلعبه ليس فقط الفوارق بين الزوجين لا بل التوتر بينهما أيضاً ، شرط ان يتجاوز المحبان هذا التوتر باستمرار دون الغائه[183]. فالخلافات نفسها التي تعكر الى حد ما صفو اتفاق الزوجين قد تعبّر عن سعي عميق الى تكامل يغتني به كل منهما بتجاوزه لذاته وقبوله اختلاف الآخر عنه[184]. هذا يعني ان الوحدة الزوجية ليست وحدة جامدة ، انما هي وحدة متحركة ديناميكية ، يتحقق فيها الحب في صيرورة دائمة يتجاوز بها باستمرار مواقفه السابقة فينمو في الاصالة والعمق[185].

ثالثاً – الزواج مكان خصب الحب

اخيراً الزواج هو مكان خصب الحب ، المكان الذي يرتضي فيه المحبان ان يتجسد حبهما في كائن جديد هو ثمرة لقائهما العميق المعبّر عنه باتصال جسديهما . هذا يعني ان انجاب الذرية الذي هو هدف الجنس الحيواني الوحيد ، لا يأتي ، رغم اهميته،

بالنسبة للجنس الانساني ، الا في المرتبة الثانية . غاية الزواج الأساسية انما هي تحقيق الحب[186]، اما الطفل فهو ثمرة هذا التحقيق ، امتداد وانعكاس للملء الزوجي[187]. على كل اذا كان انجاب الطفل لا يعني دفعه الى الوجود وحسب بل تأمين الشروط التي توفّر له امكانية تحقيق انسانيته الى ابعد حد ، فمن الثابت الآن ، على ضوء علم النفس الحديث ، ان حب الوالدين احدهما للآخر يؤمّن وحده لولدهما المناخ الصالح لمثل هذا النمو[188]!

هذا لا يعني بالطبع اننا نقلل من اهمية الولد بالنسبة لمصير الحب نفسه[189]. فالولد يجسد الحب الزوجي كما قلنا وبذلك يشكل رابطاً جديداً يجمع بين الزوجين[190]. هذا ما عبّرت عنه تلك المرأة الشابة بقولها للرجل الذي تهواه دون ان يكون لها امل بالزواج منه : « انني لا اريد ولداً منك ، بل ولداً معك[191]» . ومن جهة اخرى ينقذ الولد الحب الزوجي من خطر الانطوائية التي هي ، في النهاية ، عدوة لدودة للحب ، لانها تحول الزواج الى قوقعة يَنشد فيها كل من الزوجين رفاهيته ويتوصل تدريجياً الى اعتبار الآخر مجرد مصدر لهذه الرفاهية . الحب الزوجي لا يحتفظ باصالته الا اذا تجاوز نفسه بحركة مستمرة ينفتح بها الزوجان الى ما هو خارج عنهما وبالتالي يحافظان على حقيقة اللقاء بينهما[192]. لقد قال سان اكسوبري بحق ان الحب يقتضي ان يتطلع المحبان معاً في اتجاه واحد[193]. هذا التجاوز الذي يحفظ للحب الزوجي اصالته يتم خاصة باتجاه الاولاد ، ولكنه لا ينحصر عند هذا الحد ، لان الزوجين يستمدان من حبهما زخماً يتجهان به صوب الناس[194] متعهدين آمالهم وآلامهم ، مجاهدين معهم في سبيل مجتمع اكثر انسانية وغد افضل[195]!

٢ – الاطار الزوجي لا يُغني عن المضمون

ولكن الزواج لا يحافظ على اصالته الا اذا بقي اطاراً لحب وتعبيراً عنه . اما اذا غابت عنه هذه المعاني ، فأنه يتنكر لجوهره وينقلب على نفسه . قلنا ان المؤسسة الزوجية اطار الحب ، ولكن الاطار لا يستمد قيمته الا من المضمون ، ولا دور له سوى ابراز هذا المضمون والمحافظة عليه . اما اذا وفقد المضمون ، فالاطار يصبح فارغاً ويفقد مبرر وجوده . هكذا فاعتبار المؤسسة الزوجية غاية بحد ذاتها ، بالاستقلال عن العلاقة الشخصية الصميمية التي تعطي وحدها للمؤسسة معناها العميق ، من شأنه ان يودي بالحب وان يشوه الزواج نفسه . هذا ما هو حاصل لسؤ الحظ في كثير من الاحوال ، مما يفسر الى حد بعيد الموقف السلبي الذي يتخذه الكثيرون من المؤسسة الزوجية من جهة وحالات التفسخ الزوجي الشائعة من جهة اخرى سواء تجلى هذا التفسخ بنسبة الطلاق والانفصال المرتفعة التي تثبتها الاحصاءات[١٩٦]، او بتلك الحالات الاكثر انتشاراً التي يحتجب فيها التباعد الوجداني بين الزوجين وراء واجهة من الحياة المشتركة والتعاون[١٩٧].

كيف يتم هذا الفصم بين الاطار والمضمون ؟[١٩٨] انه قد يحدث في منطلق الحياة الزوجية[١٩٩]. تلك هي حال الزيجات المبنية على اسس مزيفة[٢٠٠]، كتلك التي تلعب الدور الاساسي في عقدها الاعتبارات العائلية او المصالح المادية وتلك التي تبنى على الشهوة وحدها . ويجدر بنا هنا ان ننوّه ان من يقدم على الزواج مدفوعاً خاصة برغبته في التنفيس عن حاجة جنسية غريزية ،

لاعتباره ان الزواج هو الطريق الوحيدة لاشباع تلك الغريزة كون السبل الاخرى مسدودة بداعي العرف والتقاليد ، قلت ان من يقدم على الزواج بمثل هذا المنظار قد فصل منذ الاساس بين الزواج وما يعطي الزواج معناه الاصيل الا وهو اللقاء الصميمي الحرّ بين شخصين[201].

ولكن فلنذهب الى ابعد من هذا ولنفترض ان الزواج ُبني في الاساس على حب اصيل . ان هذا الاساس الصحيح لا يجنبه بالضرورة خطر الانحراف . ذلك ان الانسان مهدد دوماً ، كما بيّن مونييه ، بالضياع في تلك الاشكال والمؤسسات التي يحتاج اليها ليسكب مواقفه ويعبّر عنها ، فيصبح أسير ُبنى أفرغت من معناها وقوالب جامدة هجرتها الحياة .

فقد كان الحبان قبل الزواج يجتهدان دوماً لكي يرضي احدهما الآخر ، فيعبّر هكذا عن حبه له ويستميله اليه بآن . لقد كانت تعابير الحب المستمرة المتبادلة تغذي العلاقة الوجدانية العميقة القائمة بينهما . اما بعد الزواج فكثيراً ما يرتاح أحدهما أو كلاهما الى المؤسسة الزوجية ، الى الرباط الاجتماعي الذي يشدهما الآن ، فلا يرى لزوماً لمتابعة تلك الحركة التي كان يتجه بها باستمرار الى الآخر[202]. يعتبر أحد الزوجين او كلاهما ان الزواج وضع نقطة الختام لتلك الحركة ، التي هي جوهر الحب ، وانه لم يبق للمحبين سوى ان يستريحا مطمئنين في ظل المؤسسة التي أحاطت حبهما بسور منيع . وبعبارة أخرى يعتقدان ان الرباط الاجتماعي الخارجي الذي اصبح الآن قائماً بينهما كفيل بحد ذاته ان يبقي على الوحدة بين شخصيهما[203].

هذا بالطبع خطأ فادح[٢٠٤]، لان الأمانة الزوجية الحقة لا يمكن ان تكون نتيجة عقد اجتماعي وحسب[٢٠٥]. لا يمكن لهذا العقد ان يحمي وعد المحبين الا اذا اقترن بفعل مستمر من كليهما ، فعل يحافظان به على الحب وينميانه[٢٠٦]. يقول فرنسوا دويكارتس ان وعد الأمانة العلني يشكل « دخولاً احتفالياً في الحياة المشتركة ، ولكنه لا يشكل ضمانة عصماء »[٢٠٧]. ويضيف انه ينبغي تحويل الرباط الاحتفالي الى رباط نفسي[٢٠٨]. ان العلاقات الجنسية بين الزوجين حرية بأن تساهم في تكوين هذا الرباط[٢٠٩]، شرط ان لا تتم بشكل آلي يجردها من دورها التعبيري ويفقدها بالتالي طعمها تدريجياً[٢١٠]. يبين اندره الستانس في كتابه « الحوار والجنس » ان الاتصال الجنسي هو المكان الذي يجد فيه الحب الزوجي حقيقته وغذاءه بآن ، ولكنه يضيف بأن ذلك اللقاء الجنسي بين الزوجين « انما هو ثمرة علاقتهما كلها قبل ان يصبح غذاءها الجديد » ، وان الانسجام الجنسي ، وهو ثمرة علاقة اصيلة ، يتحقق من خلال مسيرة بطيئة تتطلب النفس الطويل[٢١١]. بهذا المعنى أيضاً يحذر الدكتور لومير من تلك التفاهة التي قد تتسرب الى العلاقات الجنسية الزوجية ، فتزيل عنها طابعها الحواري ، تفقدها معنى التبادل والمشاركة وتحولها الى عملية روتينية لا هدف لها وبالتالي لا جاذبية[٢١٢]. عند ذاك يقول فرنسوا دويكارتس، يتضاءل الاتحاد الزوجي شيئاً فشيئاً . فأما يؤول الى الانفصال ، او يتحول الى مجرد واجهة ومظاهر . وقد يحاول الزوجان الابقاء عليه بفعل مجهود الارادة وحسب ، عند ذاك يتحول الزواج الى قيد لغياب غنى الحياة العاطفية عنه ويصبح العالم الخارجي ، الذي لا بد من الاطلال عليه ، مصدراً لتجارب دائمة . اما اذا سهر الزوجان على تغذية العلاقة الوجدانية التي

تجمع بينهما[٢١٣]، اذا حرصا على جعل اتصالهما الجنسي وسيلة للقاء حقيقي ، عند ذاك لن تسحرهما النداءات الخارجية ولو انهما لا يستطيعان ان يبقيا تجاهها غـير مباليين[٢١٤]. انهما ، بتعمقهما في خبرتهما الفريدة ، يجدان فيها ملء الحياة الشاملة . ذلك هو ، يقول دويكارتس ، الفارق بين الدون جوان والقلب الامين : فالأول يطارد دون جدوى الانوثة الابدية ، أما الثاني فأنه ، باقامته مع امرأة معينة علاقة فريدة ، « تزاد له الانوثة بجد ذاتها دون ان يسعى اليها »[٢١٥].

ان الخطر الذي يهـدد الزواج بالزوال او بفقدان فحواه العميق هو اعتباره عقداً يعطي كلاً من الزوجين حق الملكية على الآخر[٢١٦]. لقد تصدى ماركس بحق للمفهوم الشائع في الزواج البورجوازي الا وهو ان المرأة هي ملك لزوجها[٢١٧]. الا ان القضية اعمق من ان ترد الى مجرد انعكاس لنظام اقتصادي معين[٢١٨]. هناك نزعة عميقة للتملك ، لا تقيم وزناً للشخص الآخر ، كامنة في أعماق النفس الانسانية وهي التي تفسر ، في آخر المطاف — دون ان يقلل ذلك من شأن العوامل الاقتصادية — كل أنواع الاستئثار والاستغلال ، أكان ذلك على صعيد تكديس الرساميل[٢١٩]، او على صعيد العائلة . تلك النزعة هدامة للزواج لانها بالواقع تنكر للحب الذي ليس الزواج سوى تكريسه . اذا اعتبرت الآخر ملكاً لي ، فقد شيئته وبذلك أزلت بيني وبينه تلك العلاقة الشخصية التي هي شرط الحب الاصيل[٢٢٠]. عن مثل هذا الانحراف ، نجد مثلاً مفجعاً في رسالة زوجة نشرت بين رسائل أخرى في كتاب صدر حديثاً . تقول تلك المرأة متحدثة عن زوجها : « لم يكن يحبني . كان يحب فيّ المرأة ، او بصورة أصحّ الانوثة التي كانت تناسبه . ولكنه عندما وجد انني كنت

شخصاً ، عندما صادف « أناي » ، وجد نفسه منزعجاً ، اذ لم يكن محتاجاً الى « أنا » ، الى شخص حيّ . منذ ذلك الحين أصبح في حياته شيء زائد ، لا مكان له . شيء او بالاحرى شخص كان ينكر عليه الحق بأن يكون وحده ، وحده مع شيء له ؛ شخص كان يبرز حقوقاً ، وقبل كل شيء الحق بأن يعترف به شخصاً فريداً ، متميزاً . لم يكن ذلك في طاقته . فابتعد ، وكأنه كان يشعر بأنه مهدد في ملكه . اصبحت بالنسبة اليه دخيلة : ذلك انني كنت اسمح لنفسي بأن أكون شخصاً فيما كان يطلب مني ان اكون شيئاً ، نموذجاً من الانوثة ، حلواً ومريحاً . لقد ابتعد ؛ حوّل نظره في اتجاه آخر ؛ وذات يوم وجد امرأة اخرى قبلت ، على ما يعتقد ، ان تكون شيئاً يملكه »[221].

هكذا فان اعتبار الزواج صك ملكية ، هذا الاعتبار الذي قد يتسرب بشكل لا شعوري حتى الى قلب زوجين محبين ، يفسد الحب ويفرغ الزواج من معناه الحقيقي[222] ويحول الامانة الزوجية الى مجرد قيد خارجي يجمع الاجسام عنوة ولكنه لا يستطيع الحؤول دون تباعد القلوب[223].

يقول احد ابطال رواية بول اندره ليسور « الكلى والقلوب » لزوجته : « كونك لي لا يمكن ان يمنعك من ان تكوني لنفسك ، وإلاّ اصبحت مجرد شيء . ولو استسلمت لغيرتي ، لأنكرتُ عليك صفة الكائن البشري . ولكنني احب كائناً بشرياً . لا اتصورك مقيدة ، بل حرة ومرددة لي في كل لحظة « نعم » زواجنا . الغيرة تطالب كأنها مباشر محكمة ، انها تبرز عقوداً ووعوداً ، تطالب بحقوق . ان كل ما تعطيني اياه مجانيّ »[224].

أن الامانــة الزوجية الحقة هي اذاً داخلية وليس فقط خارجية ، انها موقف يتخذه المرء بحرية ولا يفرض عليه كنيره[٢٢٥]. ليست أسراً انمــا موقف ايجابي ، خلاق . يقول دنيس دي روجمون : « ان الامانة في الزواج لا يمكن ان تكون ذلك الموقف السلبي الذي يتخيلونه عادة . لا يمكن ان تكون سوى فعل . الاكتفاء بعدم خيانة الزوجة دليل فقر لا دليل حب »[٢٢٦]. هذا يفترض ان حركة اللقاء ، التي هي كما قلنا فحوى الجنس الانساني ، لم تتوقف عند عتبة الزواج بل تابعت مسيرهــا ضمن المؤسسة الزوجية لتحفظ لتلك المؤسسة معناها الاصيل . هــذا يعني اذاً ان الزواج ليس ، كما يعتقد الكثيرون ، نهاية (كما في القصص التي تنتهي بزواج البطلين ثم يُسدل الستار) ، انما هو بالواقع بداية الطريق الطويلة التي ينبغي للحب أن يسلكها لكي يحقق ذاته قدر المستطاع[٢٢٧]. الحب ، كما يقول الدكتور اندره برج ، هو في الزواج خَلق مستمر[٢٢٨].

حواشي الفصل الثاني

١ ـــ يقول الدكتور اندره مورالي ـــ دانينوس :

« ... يبدو بوضوح ان أسمى و اسعد تحقيق للجنس يوجد في الحب المتبادل » .

Dr. André Morali-Daninos : Evolution des mœurs sexuelles, p. 133, Casterman, 1972.

وتحدد جاكلين برجريه هذا الحب بقولها :

« الحب هو استقبال « شخص » من قبل آخر ، ولكنه الاستقبال الاكثر حقيقة واكتمالا » .

Jacqueline Bergeret : Suite pour Eve. La Femme et sa Psychanalyse, p. 215, Le Centurion, 1973.

٢ ـــ راجع :

Abel Jeannière : op. cit., p. 197.

يقول ارنست ال بهذا الصدد :

« ان الحب الاول ، الذي موضوعه الانا ، يجب ان ينضج ويتحول الى حب الأنت . ولكون هذا الأنت الجديد مهما بهذا المقدار لخيري انا ، لكونه « كل شيء » في خبرتي المعاشة . لذا فانه ينبغي ان يهمني خيره بمقدار ما يهمني خيري الخاص . انني بسعيي الى خير الآخر ، اضمن بآن واحد خيري الذاتي . صحيح ان هذا الحب للآخر لا يزال مطبوعا بحب الذات ، انما بمعنى ليس سلبيا وانانيا » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte. Les Etapes de la vie affective et sexuelle, p. 228, Le Centurion, 1971.

ويقول الكاتب نفسه في مكان آخر :

« ان الحب اكثر بكثير من الحاجة ؛ لأن الحاجة تبغي الأخذ ؛ بينما الحب يبغي العطاء . ولكن سر تلك المعجزة الطبيعية ، ان المرء يعطي في اللحظة نفسها التي يعتقد فيها انه يأخذ . في الحب ، العطاء والأخذ لا ينفصلان . فحاجة الواحد ، اي في الظاهر انانيته ، تصبح مصدر سعادة للآخر ؛ لأن الواحد لا يستطيع ان يعطي الا لان الآخر بحاجة الى هباته . فلا احد منهما يأخذ وحده او يعطي وحده . كل منهما يعطي ويأخذ بآن واحد ، وذلك بكامل انسانيته ، على كل اصعدة كيانه » .

op. cit., p. 61.

٣ — راجع :

Pierre Antoine : Sens de la sexualité et recherche d'une éthique, in Sexualité humaine, pp. 330-331.

André Alsteens : Dialogue et Sexualité, p. 333, Ed. Casterman, Tournai, 1969.

٤ — راجع :

Erich Fromm : op. cit., p. 38.

Abel Jeannière : op. cit., p. 180.

Louis Millet : l'Agressivité, pp. 160-161, p. 189, Ed. Universitaires, Paris, 1970.

يقول دنيس فاس :

« ... الحب هو تلك القوة التي تتحد الكائنين في الفعل نفسه الذي يؤكد الفارق الجذري بينهما » .

وايضا :

« ... الحب حياة ، حياة تجمع المتفارقات فيما يفرق بينها » .

Denis Vasse : Le Temps du désir, pp. 63-64, Seuil, 1969.

٥ — يذكر أوسفالت كوله هذا الاعتراف لشاب خبر سطحية المجون :

« عند ذاك تبينت ان سلوكي الماضي كان بمثابة سلوك عالم طبيعي يتنقل من موضوع بحث الى آخر دون ان يقوم في حال من الاحوال بدراسة عميقة للاشياء » . راجع :

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, pp. 242-243, Robert Laffont, 1970.

٦ — كثيرا ما يتصور المرء تضاربا بين الحب واللذة . ولكن الفكر العلمي الحديث اثبت عكس ذلك ، مبينا ان اللذة لا تتخذ كل عمقها ومداها الا بالحب . واليكم بعض الشواهد عن ذلك .

يقول كارل غوستاف يونغ :

« ... ان الحياة الجنسية لا تكتمل الا عندما يوجد تناغم موفق بين النفس والغريزة » .

C.-G. Jung : Psychologie de l'Inconscient, p. 61, Georg, Genève, 1973.

ويقول الاخصائي الكبير في شؤون الجنس ، اوسوالد شوارز :

« عندما يكتمل الاتحاد بين رجل وامرأة ، عند ذاك يهب الجسد بالمقابل بسخاء ملوكي » .

Oswald Schwarz : Psychologie sexuelle, p. 100, P.U.F., Paris, 1952.

ويقول ارنست ال :

« ... ان الاتحاد الجنسي ، عندما يكون فعل حب بالجسد ، يصبح عند ذاك اقوى رمز لوحدة الزوج العميقة ، ويمثل احدى قمم

الوجود البشري ، في اتحاد الاجساد والنفوس ، في وحدة كاملة بين انا وانت » .

ويضيف في مكان آخر :

« ليست اللذة مصدر الحب . ولكنها ، اذا اشبعت بالحب وعيشت معا ، تسمح باختبار اعمق اتحاد ، في النشوة ، ذلك الاتحاد الذي هو ينبوع دائم التجدد للسعادة والفرح » .

وايضا :

« ان النشوة النفسية تتطلب الانتعاظ (هزة الجماع) الحيواني . والخبرة الجسدية ، من جهتها ، لا تتخذ كل معناها الا اذا احيتها النشوة الداخلية » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 17, p. 246, p. 248.

وتوضح اوديت تيبو ان الانتعاظ الحقيقي انما هو نابع من مشاركة الحواس والعاطفة . وتذكرنا بما قاله رايش من ان لا اهلية حقيقية للانتعاظ دون نضج نفسي عاطفي . ولكن مقياس النضج النفسي العاطفي انما هو القدرة على التأليف بين العاطفة والرغبة . لذا تقول الكاتبة بأن الحب هو الذي « يعطي العمل الجنسي كل معناه ، وحظه بأن يؤول الى اعلى حد من الانشراح . يمكن القول بأن افضل مثير جنسي انما هو الحب » . وتضيف اوديت تيبو : « ان « طعم الرماد » الشهير الذي يصفه الادب ، تلك المرارة المزعومة التي تتبع العناق ، تبدو لي الاشارة الصحيحة الى وجود تفكك بين الرغبة والحب » . هذا صحيح خاصة بالنسبة للمراة ، اذ ان « الرغبة واللذة الجسدية مرتبطان بشكل اوثق بعاطفة الحب عندها مما هي الحال عند الرجل . ومعلوم ان كثيرا من حالات البرودة الجنسية النسائية تعود الى كون المراة غير راضية على الصعيد العاطفي » . راجع :

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 32-34, Casterman, 1971.

اورد اخيرا هذه الشهادة لنايل ، مؤسس مدرسة سومرهيل ، وهو ابعد الناس عن التزمت الخلقي :

« ان الدون جوان يحقق في الظاهر عنصر اللذة في الجنس فيما يرفض عنصر الحب (...) اما الانسان الخلوق الجديد ، فانه سيكتشف ان عليه ان يحقق وظيفتي الجنس **الاثنتين** ، اي انه ، ان لم يحب ، فلن يجد اللذه الاقصى في العمل الجنسي » .

A.S. Neill : Libres enfants de Summerhill, p. 198, Maspéro, 1973.

٧ — راجع :

Abel Jeannière : op. cit., p. 199.

٨ ــ راجع :

Abel Jeannière : op. cit., p. 170.

٩ ــ راجع :

Pierre-Henri Simon : Le Monde, supplément au No. 7098, 8 novembre 1967, p. 1.

Lettres d'amour de François et d'Antoinette, pp. 188-189.

١٠ ــ راجع :

Françoise Mallet-Joris : Les Signes et les Prodiges, p. 185, Ed. Grasset, Paris, 1966.

١١ ــ راجع :

F. Mallet-Joris : op. cit., pp. 196-200.

١٢ ــ راجع :

F. Mallet-Joris : op. cit., p. 197.

١٣ ــ راجع :

F. Mallet-Joris : op. cit., p. 196.

١٤ ــ راجع :

F. Mallet-Joris : op. cit., p. 198-199.

١٥ ــ راجع :

Paul Eluard : Dominique aujourd'hui présente, cité par François Chirpaz : Dimensions de la sexualité, p. 421.

يخاطب اراغون المحبوبة قائلا :

« من اكون بدونك يا من اتيت للقائي ...
« من اكون بدونك سوى تلب في الغاب النائم ...
« لقد تعلمت منك كل شيء عن الامور البشرية
« واخذت منذئذ ارى الكون على طريقتك
« لقد تعلمت كل شيء منك كما يشرب المرء من الينابيع
« كما تقرأ في السماء النجوم البعيدة ... » .

Louis Aragon : Prose du bonheur et d'Elsa, in Poésies, pp. 218-219, cité par Michel Dansereau : Freud et l'Athéisme, p. 170, Desclée, 1971.

١٦ ــ راجع :

Frédéric Nietzsche : Par delà le bien et le mal, p. 136, Coll. «10-18», Union générale d'éditions, Paris, 1962.

١٧ ــ راجع : سهيل ادريس ــ الحي اللاتيني ــ منشورات دار الآداب ، الطبعة الخامسة ، بيروت ، نيسان ١٩٦٥ ، ص ١٢١ ــ ١٢٢ .

يقول الروائي الايطالي الكبير البرتو مورافيا :

« الحب هو بالتأكيد وقبل كل شيء عاطفة ، ولكنه ايضا اتحاد اجساد لا يوصف وشبه روحي ... » .

Alberto Moravia : Le Mépris, p. 32, «Le Livre de poche», Paris, 1967.

١٨ — راجع :

Lettres d'amour de François et d'Antoinette, p. 120.

١٩ — تقول ماري تيريز فان ايكوت :

« في هذا المنظار السليم والانساني بالحقيقة ، يفقد الاتحاد الجنسي التباسه ليصبح بالحب نمطا خاصا من التعبير ، لحظة لقاء خارق ، يحاول بفضله الأنا والأنت ان يقتربا احدهما من الآخر الى اقصى حد : « في الحب ، الجسد شفافية ، شفافية الأنت » (بينسونغر) .

Marie-Thérèse Van Eeckhout : Nos enfants devant la sexualité, pp. 12-13, Casterman, 1966.

ويقول المحلل النفسي الكندي ميشال دنسرو :

« في علاقة بين الجنسين متطورة ، تتخذ حركات الجسد معنى روحيا : انها تنطق بالحب (...) يتجاوز الجسد التباسه ليصبح انفتاحا الى الكون » .

ويضيف في مكان آخر :

« يصبح الجسد ... مندمجا في الروح ، تتم اخيرا المصالحة بينهما » .

Michel Dansereau : Freud et l'Athéisme, p. 148, p. 170.

لذا صح قول الكاتب الفرنسي جاك دي بوربون — بوسيه :

«لا علاقة البتة بين فعل الحب دون حب وفعل الحب بحب » .

Jacques de Bourbon-Busset : Radioscopie du bonheur, p. 81, in Oui au bonheur, Semaine des Intellectuels Catholiques, 1970, Desclée de Brouwer, 1970.

عن تفاهة الجنس المفرغ من معناه ، يقدم لنا البرتو مورافيا شهادة قوية في روايته « الاحتقار » ، حيث يصور لنا ، في صفحات رائعة ، كيف أدرك المتحدث ، بطل الرواية ، ذات يوم ، ان زوجته لم تعد تحبه .

في ذلك اليوم ابدت الزوجة استعدادها لمضاجعته اذا شاء ، وتأهبت بالفعل لعناقه ، ولكنه امام جسدها العاري المقدم لم يعد يشعر بأية رغبة ، لأن كل ذلك فقد بنظره معناه العميق :

« لم اعد ارى نفسي امام المرأة التي كانت تحبني وكنت احبها ، بل امام بغي بدا عليها شيء من قلة الخبرة وفراغ الصبر ، بغي كانت تتأهب للخضوع السلبي لعناقي راجية ان يكون قصيرا وغير متعب (...) فنهضت فجأة دون ان التفت الى الوراء : « آسف ، قلت ، لم يعد ذلك يعني لي شيئا ... سأذهب لأنام في الغرفة المجاورة ... » .

Alberto Moravia : Le Mépris, pp. 35-38.

٢٠ ــ راجع :

Marc Oraison : Pour une éducation morale dynamique, p. 91, Mame-Fayard, 1971.

٢١ ــ راجع :

François Chirpaz : L'Intention de rencontre, pp. 1834, 1838.

٢٢ ــ راجع :

Pierre Antoine : op. cit., p. 332.

٢٣ ــ راجع :

Jean Lacroix : Force et Faiblesses de la famille, p. 98, Ed. du Seuil, Paris, 1957.

Dr. André Berge : La Sexualité aujourd'hui, p. 136, Casterman, Tournai, 1970.

٢٤ ــ راجع :

Denis de Rougemont ; Comme toi-même, pp. 250-253, Ed. Albin Michel, Paris, 1961.

٢٥ ــ راجع :

Les Lettres d'amour de François et d'Antoinette, pp. 63-66.

Henry Tavoillot : Une expérience d'éducation sexuelle, pp. 182-185.

٢٦ ــ راجع :

François Chirpaz : Dimensions de la sexualité, p. 422.

٢٧ ــ في رواية جوزيف كيسيل ، « وردة جاوا » ، يصور لنا الكاتب ملازما طيارا فرنسيا شابا ، زير نساء ، متأجج الشهوة ، وقد استطاع ان يستميل فتاة اوراسية رائعة الجمال ، تدعى فلورنس ؛ فوهبت نفسها له وامتلكها بجنون . يقول الشاب راويا تلك الليلة المسعورة :

« ... بما انني كنت ، في تلك اللحظات ، احب نفسي لانهائيا من خلالها ، اعتقدت ، في تلك الليلة ، انني احب فلورنس » .

Joseph Kessel : La Rose de Java, p. 166, «Folio», 1972.

٢٨ ــ هذا الموقف ، عبر عنه الكتاب بعدة نماذج روائية . اذكر منها على سبيل المثل ما يصوره لنا جيلبير دوبه ، في روايته « مزرعة المشنوق » ، من نفسية احد ابطاله ، جان ــ له ــ روجيه ، وهو رجل شهواني يقول الكاتب عنه :

« عندما كانت سلطة الجنس تحركه ، لم يكن جان ــ له ــ روجيه يرى شيئا من المخلوقات ، سوى انها كانت تتحول كلها فجأة الى انثى واحدة ، لها نفس النهدين ، ونفس الفخذين ، ونفس الحضن . ولم يكن للراس حساب عند ذاك » .

Gilbert Dupé : La Ferme du pendu, pp. 27-28, «Collection Pourpre», 1954.

وعن اماندا ، شقيقة جان المذكور ، والشبيهة به من حيث التشبق ، يقول الكاتب واصفا احدى مغامراتها الغرامية مع احد الاحداث :

« كانت ولا شك تحب هذا المراهق ، كما سوف تحب سواه غدا . كانت تهوى الهوى الذي يحتاج الى وجه وجسد الرجال » .

op. cit., p. 39.

وفي رواية « الفتيات » لهنري ده مونترلان ، نرى الاباحي بيار ده كوستال ، بطل الرواية ، يفضي بوقاحة بما يلي :

« لست ممن يصرون امام ممانعة امراة ، فاذا فقدت واحدة منهن ، وجدت مائة عوضا عنها ، كل ذلك قابل للاستبدال » .

وعن آخر امراة وقعت في حبه ، يقول :

« احب ان اشعر بأنني لا احبها اكثر من ذلك ، وانني هكذا ابقى حرا ، فآخذ من هذه الملهاة ما اشاء » .

Henry de Montherlant : Les Jeunes filles, p. 208, Gallimard, Paris, 1954.

وحيث ان الرغبة الجنسية تنفك بصعوبة عند النساء عن حاجتهن الى ان يكن محبوبات ، فانهن يعانين بشكل اخص من موقف كهذا . يقول اوسفالت كوله ، في معرض حديثه عن الحجج التي يستعملها الرجال اليوم ليقنعن النساء بأن يمنحنهم ذواتهن :

«... ان جملة تنفرهن بشكل خاص : « سأفتش عن سواك » . ليس لأنهن يخفن بالحقيقة من خسارة صديق ، بل لأنهن يشعرن بصلافة هذا التهديد (...) ويترجمنه على الوجه التالي : ما يهواه هذا الرجل ، ليس انت ، انت في كيانك الفريد . انك قابلة للاستبدال . لا يهمه من يشاركه الفراش ، شرط ان يكون شيء نسائي » .

ويضيف الكاتب :

« لماذا يحول كبرياء الرجال دون فهمهم هذه الامور ؟ لو تجرات اية فتاة على ان تكلمهم بمثل ذلك ، لنعتوها بأنها بغي ... » .

Oswalt Kolle : Ta femme cette inconnue, p. 51, Casterman, 1970.

٢٩ ــ هذا ما تعبر عنه بشكل لافت كلمة رواها احدهم عن صديق له عرف المجون ثم اكتشف الحب الحقيقي ، فقال لصديقه :

« لقد كنت حتى الآن احب مجرد اجساد ؛ اما الآن فقد احببت وجها » .

وبما ان موضوع الحب هو شخص ، لذا فالحب الحقيقي يتناول الآخر في جملة كيانه ، مما يشمل الصعيد الجسدي الحسي ،

والصعيد العاطفي ، والصعيد الروحي . راجع :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, pp. 188-189, 238.

Lettres d'amour de François et d'Antoinette, pp. 35-38.

٣٠ — راجع :

Paul Evdokimov : Sacrement de l'amour, p. 233.

هذا ما اكتشفه شاب كان يتوهم قبلا انه باستعماله الفتيات لقضاء شهوته ، يستطيع ان يعرف ماهية المراة ، فلما احب فتاة بالحقيقة انقلبت مفاهيمه وادرك انه لم يكن بوسعه ان يعرف المراة عن طريق تشييئها ، وانه بالعكس يستطيع ، عبر اكتشافه لمحبوبته كشخص فريد ، ان يطل من خلالها على النساء عامة :

« اما الآن فانا اريد ان اتعرف بفتاة واحدة هي س. وكأن بقية الفتيات غير موجودات . وبها استطيع ان اعرف بنات جنسها » .

فالتر تروبيش : احببت فتاة . مراسلات خاصة بين شاب وشابة افريقيين وراعيهما . نقلها الى العربية يوسف قسطه . الطبعة الثانية ، ص ٩٣ — ٩٤ ، دار منشورات النفير ، بيروت ، ١٩٧٣ .

٣١ — يقول مارك اوريزون :

« ان الرجل الذي « يهب ذاته » لعدة نساء لا يهب ذاته البتة ، انه يأخذ ، هذا على نقيض الحب تماما ... » .

Marc Oraison : L'Harmonie du couple humain, p. 51, Les Editions Ouvrières, Paris, 1968.

اما المحلل النفسي جورج موكو ، فانه يقيم اختبارات « التحرر الجنسي » التي تنزع الى استبدال مؤسسة الزواج الاحادي « بتجمعات جنسية » تقبل بأستبدال الشركاء او بممارسة جماعية للجنس بشكل تهتك منظم ، قائلا :

« لا يوجد تزامن عاطفي . لا يمكن للمرء ان يحب كائنين بآن واحد . حتى في العربدات التي تتشابك فيها الاجساد ، يوزع الجسد ولكن النفس لا توزع . تبقى رغبة الحب مركزة على شخص رئيسي ، اما الاخرون فمجرد صور . حتى العازبون المنتمون الى « تجمع جنسي » ذات علاقات لا تحصى ، لهم تفضيل ... » .

هذا ما يفسر تلك الظاهرة التي يبينها المؤلف ، وهي انه « ان كانت هذه الاختبارات الجماعية تزداد عددا ، فهناك ايضا كثير ممن يهجرونها عن خيبة وقرف ويعودون الى الحياة التقليدية » .

لا بل « على سبيل المفارقة ، فأن تلك المحاولات التي تبغي رفض مؤسسة الزواج تؤدي في كثير من الحالات الى تثبيتها . فان ربع الممارسين لهذه الاختبارات يصرحون بأنهم « انقذوا زواجهم » وثلاثون بالمائة يقولون بأنهم حسنوه . يظهر اذا ان المشتركين في هذا « التحرر الجنسي » لا يستطيعون ان يلغوا تلك الحاجة الاساسية الى حب كلي وحصري الكامنة في كل كائن بشري ... » .

Georges Mauco : Les Célibataires et le Célibat, pp. 196-197, Aubier-Montaigne, 1973.

راجع ايضا :

Ernest Ell : op. cit., pp. 195-196.

٣٢ ــ راجع :

Ernest Ell : op. cit., pp. 196-197.

٣٣ ــ « كان الشاعر ر.م. ريلكــه يقــول : « الحب هــو ديمومة » ، مشيرا بذلك الى ان كل تعلق عميــق لــه مشروع لاستمرار » .

Rolande Dupont : Le Conseil conjugal et familial, p. 55, Casterman, 1972.

٣٤ ــ راجع :

Gabriel Marcel : Foi et Réalité, p. 78, Coll. «Foi Vivante», Aubier-Montaigne, Paris, 1967.

٣٥ ــ راجع :

Violette Morin et Joseph Majault : op. cit., p. 120.

تقول اوديت تيبو :

« ليس من باب الصدفــة ان كلمة «amour» (الحب) ، في لاغنية ، ترد على قافية «toujours» (دائما) » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 22.

وعن وجود هذه النزعة الى ديمومة الحب حتى عند المتهتكين ، يقدم لنا الروائي الفونس دوديه نموذجا في شخص الاباحي ديشيليت الذي اخذ على نفسه الا يقضي اكثر من ليلة مع كل امراة يعاشرها ، لئلا تعوزه الشجاعة على هجرها . يقول :

« (قال) ما ارهب هذه القطيعات ... وبدت في صوته الهادىء والساخر نبرة من الرقة والشفقة اللامتناهية ... لقد عاش الاثنان سنوات معا ، وناما ملتصقين احدهما بالآخر ، ومــزجا احلامهما وعرقهما . لقد باحا بكل شيء احدهما للآخر ، ووهبا كل شيء . لقد اتخذا عادات ، طرقا في السلوك والكلام ، واخــذ كل منهمــا ملامح من الآخر . اصبحا متصلين من الراس الى القدمين (...) ثم فجأة اذا بهما يفترقان ، ينتزع كل منهما ذاته من الآخر ... كيف يفعلان ؟ من اين تأتيهما الشجاعة ؟... اما انا ، فلا قدرة لي على ذلك ... نعم ، ولو خدعت واهنت ولوثت بالسخرية والوحل ، ثــم بكت المراة وقالت لي : « ابق » ، فلن اذهب ... ولهذا السبب ، فاذا اخترت احداهن ، لا آخذها ابدا الا لليلة فقط ... » .

Alphonse Daudet : Sapho, p. 50, «Les Meilleurs livres français», 1950.

وتشهد المرشدة الزوجية مــرغريت لمبير ، بأن « حاجة الى الاستقرار تظهر ، على مر الايام ، عند اكثر الناس تمسكا « بالحب

الحر » . وتقدم لنا نموذجا عن ذلك شهادة امراه تدعى كارين في الخامسة والعشرين من عمرها . هذه ، بعد ان عاشت مع صديق لها خمسة اعوام كانت في اثنائها تغازل سواه من الرجال ، حتى انها ذهبت في وقت من الاوقات مع احدهم ، صرحت : « يجب ان نتزوج ... انني اشعر بحاجة الى شيء من الاستقرار لحبنا ... لقد ربطنا الحب اكثر بكثير مما كنا نعتقد » . راجع :

Marguerite Lambert : Amour vécu. Journal d'une conseillère conjugale, p. 63, Resma, 1973.

راجع ايضا :

Dr. Bernard Muldworf : L'Adultère, p. 91, pp. 179-180.

٣٦ — راجع قصة نجيب محفوظ : قبيل الرحيل ، في :

نجيب محفوظ : بيت سيء السمعة ، ص ٧ — ١٦ ؛ دار القلم ؛ بيروت ، ١٩٧١ .

٣٧ — راجع :

François Duyckaerts : op. cit., p. 272.

٣٨ — راجع :

Morin et Majault : op. cit., p. 120.

Denis de Rougemont : Comme toi-même, pp. 102-104, p. 115, pp. 148-150, p. 159, p. 227, Albin Michel, Paris, 1961.

٣٩ — يقول دنيس فاس :

« ان الاتحاد الجنسي لا يتحقق بصورة انسانيــة الا في افق مشاركة ، وحدة حياة ، في الوحدة الوحيدة التي تحقق امنية المحبين، اي الوحدة التي تدوم . ان الوحدة التي تدوم تضمن وجود الفوارق في الزمن ، اذ ان فقط ما يدوم يملك الوجود . ان الاثنين لا يصبحان واحدا الا بشرط ان يبقيا اثنين » .

Denis Vasse : Le Temps du désir, p. 79.

ويقول مارك اوريزون :

« في الحب ، لا يستطيع المرء ان ينظر حقيقة الى الآخر عــلى انه شخص الا اذا التزم ان يسلك معه الطريق كلها . والا فــانه — شاء او ابى ، وعى ذلك او لم يعيه — ينظر الى الآخر على انه شيء مسكر ، مرغوب ، مرضي او مريح ، وليس على انه شخص يوازي شخصه بالاهمية ، له سره الخاص ومصيره الخاص » .

Marc Oraison : L'Harmonie du couple humain, p. 90.

٤٠ — راجع :

Dr. Bernard Muldworf : L'Adultère, p. 137.

٤١ — يقول المحلل النفسي كارل ستارن :

« عند الذين يبقون غير منتمين ، تتحقق المــودة الابــدية ،

فالعودة الرهيبة لنفس الاختبارات تحتل مكان نكران الذات . انها حلقة سيسيف المفرغة . ان رفض دون جوان وفوست ينشأ من الجزع (جزع الموت عن الذات) الذي يقودهم الى قلق الـذين لم يفتدوا » .

Karl Stern : Refus de la Femme, p. 220, Mame, 1969.

ويقول أ.س. نايل :

« ان الفوضى الجنسية ترتبط بالمصاب النفسي ، انها تبديل مستمر للشريك على امل احتمال وجود المناسب . ولكن الشريك المناسب لا يوجد ابدا ... » .

« ... ان الحب الحر هزيل لانه فسق لا حنان فيه ، ولا حرارة ، ولا تعلق حقيقي » .

« ... ان الفوضى الجنسية تؤول الى التنوع ، ولكنها نادرا ما تقود الى الانشراح ولا تؤدي ابدا الى السعادة » .

ويقدم لنا هذا الشاهد :

« قالت لي امراة شابة ذات يوم ، بعد ان عاشت فترة من الفوضى الجنسية : « انني لاول مرة ، مع بيل ، اعيش حياة جنسية منشرحة » . فسألتها لماذا للمرة الاولى . « لانني احبه بينما لم اكن احب الآخرين » .

A.S. Neill : Libres enfants de Summerhill, p. 210. Maspéro, 1973.

ويقدم اوسفالت كوله من جهته الشهادة التالية :

« ان احد الطلاب في ميونيخ ، الذي كـان يتبجج بفتوحاتـه الخاطفة التي لا تحصى ، صرح لي يوما ان كل ذلك لم يكن بالفعل مرضيا ... » . راجع :

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, pp. 98-99.

٤٢ — راجع :

Majault et Morin : op. cit., p. 121.

٤٣ — يقول ب. غريلو :

« الحب (في المجون) يفلت من مشكلة الزمن ، يتهـرب من مسألة الامانة ، بالطريقة التي يتحقق بها . ولكنه يدفع ثمنا باهظا . فانه ببتره اللحظة العابرة عن كل التزام سابق او مستقبل ، يفرغها من كثافتها البشرية ، في الوقت نفسه الذي يعطيها فيه قيمة مطلقة خيالية بالكلية . « يكونان جسدا واحدا » ، قـال سفر التكوين (٢ : ٢٤) ، انما ، في الحالة التي نحن بصددها فقد السلوك معناه ولم يعد سوى صورة (راجع ١ كورنثوس ٦ : ١٦) ... » .

P. Grelot : Le Couple humain dans l'Ecriture, p. 117.

٤٤ — يقول يواكيم بودامير :

« لقد نسينا بسهولة مفرطة ان القدرة على الحب ليست شيئا نناله دون مساهمة منا ، ولكنها قصد انساني الى اعلى حد ، اداء من الارادة يجب ان نكتسبه ، عمل يتطلب تضحيات ويحتاج الى تدريب مستمر » .

Joachim Bodamer : Sexualité, Amour et Névrose, p. 44.

٤٥ ـــ راجع :

Erich Fromm : op. cit., p. 148.
Dr. Bernard Muldworf : L'Adultère, pp. 187-188.

٤٦ ـــ راجع :

Gabriel Marcel : Etre et Avoir, pp. 154-155, p. 243, Ed. Aubier-Montaigne.

٤٧ ـــ راجع :

Marc Oraison : Niveau Psychologique nécessaire à l'engagement dans une «Vocation», in Psychologie moderne et Réflexion chrétienne, Ed. Fayard, Paris, 1953, pp. 116-124.

٤٨ ـــ راجع :

S. Freud : Essais de Psychanalyse appliquée, cité par A. Plé : Freud et la Morale, p. 92.

٤٩ ـــ راجع :

S. Freud : «Civilized» Sexual Morality and Modern Nervous Illness, cité par A. Plé : op. cit., p. 117.

يقول فرويد :

« ان نمو الغريزة الجنسية يتجه ... من الشهوة الذاتية الى حب الموضوع ... » . راجع :

S. Freud : La Morale sexuelle civilisée et la maladie nerveuse des temps modernes (1908), p. 34, pp. 34-35, in La Vie sexuelle, P.U.F., 1970.

٥٠ ـــ راجع :

Dr. Ch. H. Nodet : Psychanalyse et Sens du péché, in Revue française de Psychanalyse, t. XXI, No. 6, nov.-déc. 1957, p. 805.

يقول ج.م. بوهييه :

« ان الاتجاه الى الآخر من حيث هو آخر اكتساب عاطفي متأخر ، وهو اكثر تأخرا من اكتساب الفكر التجريدي على صعيد الذكاء ... » .

J.-M. Pohier : Psychologie et Théologie, pp. 126-127, Cerf, Paris, 1967.

راجع ايضا :

Dr. André Laforgue : Clinique Psychanalytique, p. 164, Ed. du Mont-Blanc, Genève, 1964.

Dr. André Berge : L'Enfant au caractère difficile, p. 175, Hachette, 1970.

Dr. Charles Odier : L'Angoisse et la Pensée magique, p. 20, Delachaux et Niestlé, 1966.

Jacqueline Bergeret : Suite pour Eve, p. 73, Le Centurion, 1973.

٥١ — راجع :

Marc Oraison : L'Harmonie du couple humain, p. 75.

٥٢ — يوضح مارك اوريزون ان مثال التوازن الراشد هو الاعتراف بالشريك الجنسي على انه شخص . راجع :

Marc Oraison : op. cit., pp. 26-27.

راجع ايضا :

Otto Fenichel : La Théorie psychanalytique des névroses, tome I, pp. 103-104, P.U.F., 1953.

٥٣ — يقول ارنست ديشتر :

« (ان حب) الطفل يتصف جوهريا بمركزية الانـا . فالطفل يريد ان يأخذ ، يفتش عن براهين تعبر له عن حب الآخرين لـه . ينزع الى مطابقة العائلة به اكثر منه الى مطابقة ذاته بالعائلة ... »

Ernest Dichter : La Stratégie du désir, p. 214, Fayard, 1970.

ويقول جورج موكو :

« ... لا يحب الطفل الا بالاضافة الى نفسه » . راجع :

Georges Mauco : L'Inconscient et la Psychologie de l'Enfant, p. 26, P.U.F., 1970.

ويقول ا.س. نايل :

« الطفل لا يحب ، فقط يريد ان يكون محبوبا » .

A.S. Neill : Libres enfants de Summerhill, p. 285.

٥٤ — راجع :

Michel Richard et coll. : La Psychologie et ses domaines, pp. 177-178, Chronique sociale de France, 1971.

٥٥ — راجع :

Dr. Ch. H. Nodet : Sexualité et Situation, in «Esprit», Nov. 1960, pp. 1734-1735.

٥٦ — راجع :

Erich Fromm : L'Art d'aimer, p. 39.

٥٧ — راجع :

E. Fromm : op. cit., p. 114, note 8.

٥٨ — راجع :

Dr. André Berge : L'Education sexuelle et affective,

pp. 166-167, Ed. du Scarabée, Paris, 1964.
Denise Saada : L'Enfant et les grandes personnes, pp. 141-150, Aubier-Montaigne, Paris, 1968.
ان اكتساب الاستقلال الذاتي ، وهو ثمرة النضج ، شرط لبلوغ الحب المعطاء . يقول الدكتور اندره برج :
« لكي يكون حب الآخر اصيلا ، يجب الاعتراف بهذا الآخر على انه آخر ، ولكن هذا الاعتراف يقتضي ان يضطلع الفرد بغيريته الذاتية على صعيد الفكر والشعور » . راجع :
Dr. André Berge : L'Enfant au caractère difficile, pp. 175-176, Hachette, 1970.
راجع ايضا بصدد المعطائية كمقياس لنضج الحب :
Dr. André Berge : Le Métier de parent, pp. 165-166, Aubier-Montaigne, 1956.
٥٩ ــ راجع :
S. Freud : Essais de Psychanalyse appliquée, cité par A. Plé : Freud et la Morale, p. 139, note 49.
٦٠ ــ راجع :
Charles Baudouin : Y a-t-il une science de l'âme ?, p. 55, Ed. Fayard, Paris 1957.
٦١ ــ راجع :
Dr. André Arthus : Ceux que l'on nomme les grandes personnes, p. 6, Les Ed. Ouvrières, Paris, 1969.
٦٢ ــ راجع :
Dr. René Held : Psychothérapie et Psychanalyse, Petite Bibliothèque Payot, 1968.
٦٣ ــ راجع :
Erikson : Enfance et Société, p. 177, Ed. Delachaux et Niestlé, Neuchâtel, Paris, 1959.
Anna Freud : Le Normal et le Pathologique chez l'Enfant, p. 98, NRF, Gallimard, Paris, 1968.
يستشهد المحلل النفسي جورج موكو بالنص التالي لفرويد :
« ان الصراع بين الغرائز الاجتماعية والغرائز الانانية البحتة يعبر عن مجهود للتأليف يسعى الى ازالة كل ما يعارض توحيد الافراد على الصعيد الاجتماعي (...) ان يقبل المرء التنازلات التي لا بد منها ، ان يرتضي التضحية بما هو فردي لما هو شامل ، ان ينصاع الى التجرد من الانانية ، هذا ما يمهد له التحليل النفسي للعقل الباطن » .
Freud, cité par Georges Mauco : L'Inconscient et la Psychologie de l'Enfant, pp. 189-190.
ويضيف الكاتب نفسه :

« الانسان ، بالنسبة لفرويد ، يكمل تطوره الطبيعي عندما يصبح قادرا ان يجرد طاقته العاطفية عن نفسه ويوظفها في الآخر » .
op. cit., p. 192.

ويقول المحلل النفسي ميشال دانسرو :
« ان ابحاث فرويد العيادية عن الحب تدور بشكل واضح في فلك المعنى الذي يعطيه الرسول بولس لهذه الكلمة . فقد كان (فرويد) يعتبر ان مثال الصحة النفسية يوجد باتجاه الابوة والامومة ، والقدرة على العمل والحب ، على حساب النزعات الشهوانية البحتة ، وليس فقط في القدرة على ممارسة العلاقات الجنسية » .
Michel Dansereau : Freud et l'Athéisme, p. 109.

٦٤ ـــ راجع :
Dr. C. H. Nodet : Brèves remarques sur la «Morale Psychologique», in Psychologie moderne et Réflexion chrétienne, p. 183, Fayard, Paris, 1953.

٦٥ ـــ راجع :
Dr. André Berge : L'Education sexuelle et affective, p. 43.

يقول مارك اوريزون :
« ... ان كائنا بشريا عاجزا عن تأليف زوج couple صحيح مع آخر ، اي عن بناء وحدة مستقرة ، انما هو غير مكتمل من حيث نموه العاطفي ، او غير متزن . انه لا يزال متوقفا ، بنسبة تزيد او تنقص ، عند تلك المرحلة الطفولية او المراهقة حيث يعاش الآخر كشيء اكثر منه كشخص » . راجع :
Marc Oraison : L'Harmonie du couple humain, pp. 89-90.

٦٦ ـــ راجع :
Dr. A. Hesnard, in «Esprit», novembre 1960, p. 1821.

٦٧ ـــ راجع :
Dr. Gérard Mendel : La Révolte contre le Père, pp. 161 et 163, Payot, Paris, 1969.

٦٨ ـــ راجع :
André Stéphane : L'Univers contestationnaire, pp. 239 et 282-285, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1969.

تقول اوديت تيبو :
« ... اذا كانوا فيما مضى يمجدون الحب من حيث هو عاطفة مع احتقار (ظاهري) للرغبة ، فانهم ينزعون اليوم الى اتخاذ الموقف المعاكس ، اي الى الاعتراف بقيمة الرغبة مع ريبة في العاطفة ـــ مما يؤدي الى ذات **الانفصام** بين الرغبة والعاطفة ، اللذين لا حب حقيقي دون ارتباطهما » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 119.

٦٩ ــ يقول فرويد :

« نلاحظ ان الحياة الجنسية عند الانسان لا تنمو دفعة واحدة من البدء حتى فترة النضج ولكنها تخضع ، بعد تفتحها الاول الذي يمتد حتى الخامسة من العمر ، الى انقطاع قوي ، ثم تعــود عند البلوغ وتعيد الصلة بمقدماتها الطفولية » .

S. Freud : Inhibition, Symptôme, Angoisse (1926), cité par Christian David : L'état amoureux, p. 71, PBP, 1971.

٧٠ ــ راجع مثلا :

Marlène Leist : L'Education sexuelle de votre enfant, p. 54, Bloud et Gay, Paris, 1972.

٧١ ــ راجع :

Anna Freud : Initiation à la Psychanalyse pour éducateurs, pp. 98-101, 103-105.

Anna Freud : Le Normal et le Pathologique chez l'Enfant, pp. 36, 45-46, 51, 53.

Jean Guillaumin : Origine et Développement du sentiment de la mort, in La Mort et l'Homme du XXe siècle, pp. 86-87, p. 103, Ed. Spes, Paris, 1965.

Hans Zulliger : Le Jeu de l'Enfant et sa dynamique de guérison, p. 158, Ed. Bloud et Gay, Paris, 1969.

Mélanie Klein et Joan Rivière : L'Amour et la Haine, pp. 78, 117.

Bannister et als : Problèmes du mariage, pp. 42-43, P.U.F., 1959.

Karl Stern : Refus de la femme, pp. 22-23, Mame, 1969.

Rosa Tanco Duque : Narcissisme et Personnalisation, in Personnalisation. Etudes sur la Psychologie d'Igor Caruso, pp. 129-139, Desclée, 1971.

٧٢ ــ راجع :

S. Freud : Malaise dans la Civilisation, pp. 12-13, in Revue française de Psychanalyse, tome 34, janvier 1970, pp. 9-80.

٧٣ ــ يقول المحلل النفسي وينيكوت :

« في هذه الحالة البدائية . . . يعتبر الموضوع بالنسبة للذات وكأنه ليس موجودا الا حين يكون مرغوبا به . . . وكأنه يختفي عندما لا يكون مرغوبا » .

Winnicott, cité par S. Lebovici et M. Soulé : La Connaissance de l'Enfant par la Psychanalyse, pp. 256-257, PUF, 1970.

ويقول المحلل النفسي شبيتز :

« بالنسبة للطفل المولود حديثا ، فالمحيط مكـون من شخص واحد ، اذا صح التعبير ، الا وهو الام او بديلها ، وحتى هذا الشخص الوحيد لا يدركه الطفل على انه كيان متميز عنه ، بل على انه مجرد جزء من مجموعة حاجات الرضيع وارضائه » .

Spitz, cité par S. Lebovici et M. Soulé : op. cit., p. 235.

راجع ايضا :

Hans Zulliger : Bandes, Hordes et Communautés, pp. 42-43, Bloud et Gay, 1969.

Karl Stern : Refus de la femme, p. 22, Mame, 1969

٧٤ — راجع :

Otto Rank : Le Traumatisme de la Naissance, Petite Bibliothèque Payot, 1968.

Denise Saada : L'Héritage de Freud, pp. 55-56, Ed. Aubier-Montaigne, Paris, 1966.

يقول برونو كاستيه بهذا الصدد :

« ان حركة الفرد التلقائية هي بأن يعود الى تلك الحالة التي لا حاجة فيها ولا توتر ، حالة ذوبان الجنين (بالأم) عندما يكون في الرحم » .

Bruno Castets : La Loi, l'Enfant et la Mort, p. 230, Fleurus, 1971.

٧٥ — راجع :

Susan Isaacs : Les Premières années de l'enfant, pp. 101-104, Ed. Delachaux et Niestlé, Neuchâtel, 1955.

S. Freud : Malaise dans la Civilisation, pp. 11-13.

٧٦ — راجع :

Dr. Jean-Pierre Lauzel : L'Enfant voleur, p. 82.

٧٧ — يقول المحلل النفسي الانكليزي الشهير الدكتور وينيكوت :

« في البدء ، لا يعرف الاطفال ان الثديين جزء من الوالدة . في البدء ، اذا لامس وجههم الثدي ، لا يعرفون اذا كان شعور الارتياح يبدأ في الثدي او في الوجه . وبالفعـل يلعب الرضعـان بخدودهم ويخدشونها كما لو كانت اثداء ... » .

Dr. D.W. Winnicott : L'Enfant et sa famille. Les premières relations, p. 56, PBP, 1971.

ويقول ايضا :

« على صعيد نفسي ، فالطفل يرضـع ثـديا هـو جزء من ذاته ... » .

Winnicott, cité par S. Lebovici et M. Soulé : La Connaissance de l'Enfant par la Psychanalyse, p. 241, PUF, 1970.

ويقول لوبوفيسي وسوليه بالمعنى نفسه :
« ان الرضيع . . . لا يميز نفسه عن محيطه وبالتالي لا يمكنه ان يحس بثدي الام الا وكأنه جزء من ذاته » .
S. Lebovici et M. Soulé : op. cit., p. 214.
٧٨ ــ راجع :
S. Freud : Abrégé de Psychanalyse, p. 60, P.U.F., Paris, 1967.
يقول برونو كاستيه :
« . . . ان الآخر يبرز عند اول رضاعة يقطعها بشكل فظ صوت جرس الباب او الحليب الفائر المتدفق على النار . الآخر يبرز من النقص » .
Bruno Castets : La Loi, l'Enfant et la Mort, p. 77.
٧٩ ــ راجع :
Berthe Reymond-Rivier : Le Développement social de l'enfant et de l'adolescent, p. 275, Ed. Charles Dessart, Bruxelles, 1965.
٨٠ ــ راجع :
Selma H. Fraiberg : Les Années Magiques, p. 49.
يقول كارل ستارن :
« . . . لا يصبح الانسان قادرا حقا على الحب الا اذا قطع الرباط النفسي المكون من الالتصاق بالأم . عند ذاك فقط نصبح قادرين على مجابهة الكون والآخرين » .
Karl Stern : Refus de la femme, p. 23, Mame, 1969.
راجع ايضا :
Hans Zulliger : Bandes, Hordes et Communautés, pp. 40-42.
٨١ ــ راجع :
S.H. Fraiberg : op. cit., pp. 41-44.
٨٢ ــ يقول الدكتور اندره برج :
« ايستطيع الرضيع ان يحب في شخص مرضعته شيئا آخر سوى اشباعه الذاتي النهم ؟ » .
Dr. André Berge : Le Métier de parent, p. 35, Aubier-Montaigne, 1956.
نجد ما يوازي هذا الموقف الطفولي في كل سلوك جنسي لا ينظر فيه الى الآخر الا بمثابة شيء ، او كما يقول المحللون النفسيون بمثابة « موضوع جزئي » : حيث ينظر الى المرأة مثلا كالى مجرد مهبل ، والى الرجل كالى مجرد قضيب . راجع :
Bruno Castets : La Loi, l'Enfant et la Mort, pp. 138-151.

٨٣ ــ بصدد الانتقال من « الموضوع الجــزئي » (الثــدي ، اليدان ، العينان) الى « الموضوع الكلي » (الأم ككل) ، والى مــا يرافق ذلك من اكتشاف الأم كشخص متميز ، راجع :

Hanna Ségal : Introduction à l'œuvre de Mélanie Klein, pp. 2, 52-53, 56-57, 71, 80, 94-95, PUF, 1969.

٨٤ ــ راجع :

Dr. René Spitz : La Première année de la vie de l'enfant, P.U.F., Paris, 1958.

Anna Freud : Initiation à la Psychanalyse pour éducateurs, pp. 103-105, Ed. Privat, Toulouse, 1968.

Thérèse Gouin-Décarie : Intelligence et Affectivité chez le jeune enfant, pp. 78-112, Delachaux et Niestlé, Neuchâtel et Paris, 1963.

يقول سرج لوبوفيسي وميشال سوليه :

« ان ملاحظات اطباء الاطفال وملاحظات احــدنا (م. سوليه) اثبتت ان عمر السبعة اشهر اكثر مطابقة لما يحصل عند الرضعــان العائشين في العائلات التي يحسن فيها المناخ العاطفي ووســائل التنشيط » .

Serge Lebovici et Michel Soulé : op. cit., p. 232.

٨٥ ــ راجع :

Maurice Debesse : Les Etapes de l'Education, p. 44, P.U.F., 1961.

٨٦ ــ راجع :

Roger Mucchielli : La Personnalité de l'enfant, p. 65, p. 67, pp. 90-91, Ed. sociales françaises, 1964.

Dr. Pierre Galimard : l'Enfant de 6 à 11 ans, p. 40, Ed. Edouard Privat, Toulouse, 1962.

٨٧ ــ راجع :

Paul Osterrieth : Introduction à la Psychologie de l'enfant, p. 87, P.U.F., Paris 1957.

Michel Richard et coll. : La Psychologie et ses domaines, p. 52, Chronique sociale de France, 1971.

٨٨ ــ راجع :

Dr. Henri Wallon : Niveaux et Fluctuations du Moi, in «Enfance», No. 1 et 2, 1963, pp. 87-98.

Michel Richard et coll. : op. cit., p. 111.

Denis Vasse : Le Temps du désir, p. 150, Seuil, 1969.

٨٩ ــ راجع :

Selma H. Fraiberg : Les Années magiques, pp. 64-65.

٩٠ ــ راجع :

Dr. Henri Wallon : article cité.

Dr. Henri Wallon : Les Origines du caractère chez l'enfant, pp. 222-224, P.U.F., Paris, 1954.

٩١ — راجع :

Dr. André Berge : La Sexualité aujourd'hui, p. 24, Casterman, 1970.

٩٢ — راجع :

Dr. André Berge : L'Education sexuelle et affective, pp. 23, 30.

عن دور الوالدين في هذا الاكتشاف ، تقول جاكلين برجريه :

« ان الدور الرئيسي الذي يلعبه الرجل والمرأة ، الى جانب ولدهما ، هو ان يمثلا شيئا فشيئا ، بالنسبة اليه ، مشكلة ، من جراء اختلافهما الجنسي . ان جنس الوالدين يضطر الطفل الى ان يختار نفسه شبيها لذاك الذي يرى ان جسده يشبهه . عوض ان يبقى مجموعة صغيرة تحوي كل شيء .

« ما سوف يكتشفه ، في الثالثة او الرابعة من عمره عند مجابهته الواقع الجنسي ، هو انه يوجد على الارض رجال ونساء وانه ليس من سبيل ليصبح المرء الاثنين معا . عند ذاك يقدم له احد الوالدين نموذجا لينمو بموجبه ، وتتأثر صورة هذا النموذج بشكل صميمي بنوعية العلاقة القائمة بين هذا الوالد والوالد الآخر » .

Jacqueline Bergeret : Suite pour Eve. La Femme et sa psychanalyse, p. 55, Le Centurion, 1973.

٩٣ — راجع :

J.-P. Deconchy : Le Développement psychologique de l'enfant et de l'adolescent, p. 83, Les Ed. Ouvrières, Paris, 1966.

٩٤ — راجع :

Dr. André Berge : L'Enfant au caractère difficile, p. 69, Hachette, 1970.

Dr. Bernard Muldworf : Le Métier de père, pp. 112-113, Casterman, 1972.

٩٥ — راجع :

Marc Oraison : L'Echec, facteur d'élaboration du psychisme humain, pp. 98-104, in l'Homme devant l'échec, Spes, Paris, 1959.

Antoine Vergote : Psychologie religieuse, pp. 193-194, Ed. Charles Dessart, Bruxelles, 1966.

Georges Mauco : Psychanalyse et Education, pp. 107-108, Ed. Aubier-Montaigne, Paris, 1967.

Dr. Ch. H. Nodet : Sexualité et Situation, in La Sexualité, «Esprit», novembre 1960, pp. 1741-1742.

Claude Geets : Psychanalyse et Morale sexuelle,

pp. 123-132, Ed. Universitaires, Paris, 1970.
Denis Vasse : Le Temps du désir, p. 34.
يقول برونو كاستيه :
« ان الأب يمثل مناعة الأم ، جزئيا على الاقل ... انه يمثل كل ما هو ، في رغبة الأم ، موجود بمعزل عن الطفل » .
Bruno Castets : La Loi, l'Enfant et la Mort, pp. 44-45.
٩٦ — توضح جاكلين برجريه كيف ان كسب الطفل هذا مشروط بحب راشد يجمع الوالدين :
« ... هذا الطفل الذي كانه كل منا (...) كان متحفظا في رغبته باجتياز خطوة النمو ، ذلك ان تلك الخطوة كانت تفترض ان يبدأ بقبول نفسه كائنا مستقلا وبالتالي منفردا ، شقيا sexué ، ومحدودا (...) كيف له ان يلج الى حدوده الذاتية ، الى محدوديته الذاتية ، وهو الذي كان يعتبر نفسه اولا محور الكون ؟ ما يلاحظ هو انه يبلغ هذا النوع من التخلي ، الحتمي والصحي ، بسهولة اوفر بكثير (...) عندما « يحب » والداه احدهما الآخر ، اي عندما يكونان من جهتهما قد تخلصا تقريبا من مركزية الأنا الطفولية » .
Jacqueline Bergeret : Suite pour Eve, pp. 58-59.
٩٧ — راجع :
Dr. Bernard Muldworf : Le Métier de père, pp. 131-132, Casterman, 1972.
٩٨ — راجع :
Dr. André Berge : Le Métier de parent, p. 21, Aubier-Montaigne, 1956.
٩٩ — يقول هانس زوليغر :
« ان الرضيع ، وقد استيقظ فيه الحب لوالدته ، يريد ان يمتلكها كليا لنفسه ، وبما ان اعضاءه التناسلية ليست نامية بعد ، يكتفي بامتلاك فمي . انه لا يتخلى لأحد عن امه » .
Hans Zulliger : Bandes, Hordes et Communautés, pp. 86-87, Bloud et Gay, 1969.
١٠٠ — راجع :
Dr. Gérard Mendel : La Révolte contre le Père, p. 162.
Dr. René Laforgue : Psychopathologie de l'Echec, pp. 45, 47, 48-49, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1969.
يقول روجيه جيلبير :
« ... الطفل يعطي غائطه او لا يعطيه : يمنحه او يرفضه ، وفقا لاختياره ، لمن يشاء ، ويصبح (هكذا) قادرا على ممارسة سلطة قد تصبح مستبدة ... » .
Roger Gilbert : Psychologie et Education de l'Enfant, p. 41, Fleurus, Paris, 1971.

١٠١ ــ يقول الدكتور اندره برج :

« في العمر الشرجي anal ، الآخر انما هو شيء ، والمرء يعبر عن تعلقه بشيء باحتفاظه به بعناية لنفسه وبختمه بدمغة ملكيته . ينبغي ان يتابع النمو الجنسي لكي يعتبر الآخر اخيرا كشخص يحب من حيث هو شخص وليس على منوال الاشياء » .

Dr. André Berge : L'Enfant au caractère difficile, p. 37, Hachette, 1970.

١٠٢ ــ راجع :

Berthe Reymond-Rivier : op. cit., pp. 59-60.

١٠٣ ــ يقول برونو كاستيه بهذا الصدد :

« ان يكون (الطفل) محبوبا ، يعني ان يكون موضوع رغبة الآخر ، وهذا ما يستحق منه ان يطابق احيانا رغبته الذاتية برغبة هذا الآخر » .

Bruno Castets : La Loi, l'Enfant et la Mort, p. 77.

١٠٤ ــ راجع :

Dorothy Burlingham et Anna Freud : Enfants sans famille, p. 98, P.U.F., Paris, 1949.

Hans Zulliger : op. cit., pp. 43-44.

١٠٥ ــ راجع :

Irène Lézine : Psychopédagogie du premier âge, pp 72-81, P.U.F., 1964.

١٠٦ ــ يقول فرويد :

« ان الغائط هو بالضبط اول هدية ، انه جزء من جسد الرضيع لا يتخلى عنه الا بأمر من الشخص المحبوب ، وبواسطته يعبر له عن حنانه ... » .

S. Freud : Sur les transpositions de pulsions plus particulièrement dans l'érotisme anal (1917), p. 109, in La Vie sexuelle, P.U.F., 1970.

١٠٧ ــ راجع :

Dr. Bernard This : La Psychanalyse, pp. 137-164, Ed. Casterman, Tournai, 1960.

١٠٨ ــ راجع :

Dr. Wilfried Daim : Transvaluation de la Psychanalyse, pp. 215-221, Ed. Albin Michel, Paris, 1956.

١٠٩ ــ راجع :

S. Freud : op. cit., pp. 109-110.

١١٠ ــ يقول بيار هنري :

« ان النزعة الجنسية لا تعود استيلائية بل تصبح معطائة : منذ ذلك الحين يجد الطفل لذة في العطاء » .

Pierre Hanry : L'Inconscient à découvert, p. 57

Editions Universitaires, Paris, 1972.

١١١ — راجع :

S. Freud : La Disparition du complexe d'Oedipe (1923), p. 120, in La Vie sexuelle.

١١٢ — راجع :

André Stéphane : L'Univers contestationnaire, pp. 192 et 209.

Dr. René Laforgue : Psychopathologie de l'échec, p. 53, P.B.P., 1969.

Dr. Gérard Mendel : La Révolte contre le Père, p. 117.

Otto Fénichel : La Théorie psychanalytique des névroses, tome I, pp. 103-104, P.U.F., Paris, 1953.

١١٣ — راجع :

Dr. Paul le Moal : L'Evolution Sexuelle, pp. 38-39, in «l'Ecole des parents», mai 1968.

G. Tordjman : Clefs pour la Sexologie, p. 189, Seghers, 1972.

Ecole des Parents : Cette éducation sexuelle qui vous fait peur, p. 147, Stock, Paris, 1974.

١١٤ — راجع .

Hélène Deutsch : Problèmes de l'adolescence, p. 16, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1970.

١١٥ — راجع :

Dr. André Arthus : Adolescence, pp. 45-73.

١١٦ — راجع :

Oswalt Kolle : Ton mari, cet inconnu, pp. 23-37, Casterman, 1969.

١١٧ — يقول الدكتور اندره برج :

« ان المراهق ، بعد البلوغ ، يكرر بالاجمال تطور سني الحياة الاولى ، انما بنبرة مختلفة جدا . . . » .

Dr. André Berge : Le Métier de parent, pp. 168-169.

راجع ايضا :

Dr. André Berge : La Sexualité aujourd'hui, p. 163.

Oswald Schwarz : Psychologie sexuelle, pp. 27-42, pp. 60-103.

Anne-Marie Rocheblave-Spenlé : L'Adolescent et son monde, pp. 111-115, Editions Universitaires, 1969.

Monique Gueneau : L'Enfant et son désir d'aimer, pp. 58-68, Le Centurion, 1971.

Pierre Hanry : L'Inconscient à découvert, p. 58.

١١٨ — راجع :

Pierre Hanry : op. cit., pp. 59-66.

١١٩ — يقول بوفيه :
« قضية الجنس كقضية علبة تصوير . فاذا اهديت علبة تصوير لفتى ، لن يكون قادرا ان يبدع فورا روائع ؛ بل انه سيبدأ بالخربشة » .

Bovet, cité par Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 121.

ويقول برونو كاستيه ان الولد ، عند البلوغ ، « يضطلع برغبات جديدة على بنية ذهنية قديمة ، لا تزال طفولية بالحقيقة » . ويضيف :
« ربما يمكن ان نقول ان التحقيقات الجنسية اذا حدثت في تلك الفترة قد تكون من اسباب اختلال التوازن من حيث انها تدفع الولد الى الاضطلاع بدور يعجز عن القيام به لأنه يفرط باقحام الخيالات الطفولية فيه » .

Bruno Castets : La Loi, l'Enfant et la Mort, pp. 168-169.

ويقول بيار هنري :
« على الصعيد البيولوجي البحت ؛ يعني البلوغ الانتقال من الطفولة الى الرشد ، أي ان الطفل ، اذا بلغ ، لم يعد طفلا بفضل صيرورته قادرا على الانجاب . حاصل الكلام ان هذا الانتقال سريع اذ انه لا يدوم ، في جميع الاحوال ، سوى بضعة اشهر . وبالعكس ، على الصعيد العاطفي ، فان الانتقال من حالة الطفل الى حالة الراشد تتطلب دوما سنين طويلة . (لا بل انه احيانا لا يكتمل ابدا) . ان هذا التفاوت لهو بحد ذاته مصدر صعوبات : فالمراهق الذي له جسد راشد ، وبالتالي حاجات راشد ، يحتفظ لمدة طويلة بشعور « طفل » ، وهكذا يترتب عليه ان يضطلع بمسؤوليات راشد (خاصة على الصعيد الجنسي) بشعور طفولي — او على كل حال غير ناضج » .

Pierre Hanry : L'Inconscient à découvert, p. 58.

راجع ايضا :

S. Freud : La Morale sexuelle civilisée et la maladie nerveuse des temps modernes, p. 42, in La Vie sexuelle.

Dr. Jean-Pierre Lauzel : L'Enfant voleur, p. 129.

١٢٠ — راجع :

Jean-Pierre Deconchy : Le Développement Psychologique de l'enfant et de l'adolescent, p. 220, Ed. Ouvrières, Paris, 1966.

R. Gleason et G. Hagmaier : Direction, Education et Psychopathologie, p. 104, Aubier-Montaigne, Paris, 1962.

Marc Oraison : L'Harmonie du Couple humain, pp. 74-75.

١٢١ ــ راجع :

Marc Oraison : Pour une éducation morale dynamique, p. 98.

تجدر الاشارة الى الفارق الهام الذي يميز المراهق ، في هذا الميدان ، عن الطفل في الثالثة من عمره . فالمراهق ذو النمو السليم ، وان مارس الاستمناء ، متجه برغبته نحو الجنس الآخر ، يتصل به بالتخيلات التي ترافق عملية الاستمناء ان لم يكن بالواقع ، علما بأن انطواءه على جسده مرده جزئيا ، والى حد كبير ، في الحالات السوية ، الى العوائق الاجتماعية والتربوية التي تحول بينه وبين الجنس الآخر . لذا فعلى الصعيد النفسي يمكن اعتبار استمناء المراهق ، اذا سار النمو سيره الطبيعي ، لا مجرد تكرار لاستمناء الطفولة ، بل مرحلة انتقالية نحو النضج الجنسي والعاطفي . راجع بهذا الصدد :

André Alsteens : La Masturbation chez l'Adolescent. Les Données psychologiques du problème et ses implications pédagogiques et psychothérapiques, Desclée de Brouwer, Bruges-Paris, 1967.

١٢٢ ــ انما يبدو انها الآن في تزايد ، كما تشير بعض الاحصاءات . فارنست ال يذكر مثلا نسبة ٦٠ ٪ . راجع :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 119.

وقد يكون ارتفاع النسبة هذا عائد ، على الاقل جزئيا ، الى ملاحظة اكثر موضوعية للحياة الجنسية النسائية ، كما ينوه بيار هنري . راجع :

Pierre Hanry : L'Inconscient à découvert, p. 60.

١٢٣ ــ راجع :

Jean-Pierre Deconchy : op. cit., p. 221.

Marc Oraison : L'Harmonie du couple humain, pp. 22, 76, note 1.

١٢٤ ــ راجع :

Dr. Paul Le Moal : op. cit., pp. 40-41.

Dr. G.-Ph. Guasch : L'Adolescent, son corps et les «autres», 3, L'Adolescente et son Corps, p. 31, «L'Ecole des Parents», novembre 1971.

١٢٥ ــ راجع :

J.A. Hadfield : L'Enfance et l'Adolescence, pp. 168-173, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1966.

١٢٦ ــ يقول ارنست ال :

« حتى الفتيان الذين لا يمارس عليهم اي ضغط تربوي او ديني يشعرون ان الاستمناء ليس مرضيا بالكلية ، لأن الجنس ، بطبيعته ، متجه نحو « انت » ، مما لا يحققه الاستمناء : لذا يزداد بعده

الشعور بالعزلة » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 119.

على كل ، نذكر بان استمناء المراهق ، من حيث العلاقة الخيالية التي يتضمنها بمواضيع من الجنس الآخر ، يمثل تقدما بالنسبة لشهوة الطفل الذاتية . راجع ايضا بهذا الصدد :

Dr. Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, p. 194.

١٢٧ — راجع :

Hélène Deutsch : op. cit., pp. 25-31.

Dr. André Berge : Les Défauts de l'Enfant, p. 118, P.B.P., 1968.

١٢٨ — حول اسطورة نرجس ، راجع :

Pierre Hanry : op. cit., p. 59, note 19.

١٢٩ — يقول بيار هنري :

« ان مرحلة الشهوة الذاتية ... تنتهي عموما حوالي الخامسة عشرة ، ولكنها كثيرا ما تمتد الى ابعد من ذلك بكثير ... تبدأ فترة الشهوة الغيرية عموما نحو الخامسة عشرة ... » .

P. Hanry : op. cit., pp. 59, 62.

١٣٠ — براي فرويد ان اختيار موضوع نرجسي ، اي موضوع يقدم للفرد صورة عن ذاته ، انما هو « على وجه العموم اسهل منالا واقرب الى التحقيق من التحول الى الجنس الآخر » .

S. Freud : Sur quelques mécanismes névrotiques dans la jalousie, la paranoïa et l'homosexualité (1922), p. 279, in Névrose, Psychose et Perversion, PUF, 1973.

ويقول في موضع آخر :

« ... حتى عند الانسان الطبيعي ، ينبغي ان تنقضي فترة ما قبل ان يفرض قرار نهائي ذاته بشأن جنس موضوع الحب . فالفورات الجنسية المثلية والصداقات ذات القوة المفرطة والملونة بالشهوة انما هي شيء عادي تماما عند كل من الجنسين في السنوات الاولى التي تلي البلوغ » .

S. Freud : Sur la psychogenèse d'un cas d'homosexualité féminine (1920), p. 267, in Névrose, Psychose et Perversion.

وتقول مونيك غينو :

« ان المراهق النرجسي ، اذ ينطلق في تحركه ، يخرج عفويا من نرجسيته ليسير بموجب الاندفاع الذي يحركه الى التفتيش عن موضوع . ان الموضوع المكمل يخيفه ، من هنا ظهور اوالية اخرى ، الا وهي التفتيش عن الشبيه » .

Monique Gueneau : L'Enfant et son désir d'aimer, p. 61.

١٣١ ـــ راجع :

Oswald Schwarz : Psychologie sexuelle, p. 38, P.U.F. 1952.

١٣٢ ـــ راجع :

Nikos Kazantzakis : Lettre au Gréco, cité par Hélène Deutsch, op. cit., p. 28.

١٣٣ ـــ راجع :

Dr. Paul Le Moal : op. cit., pp. 41-45.
J.A. Hadfield : op. cit., pp. 185-188.
Drs. Claude Kohler et Paule Aimard : De l'Enfance à l'Adolescence, pp. 104-107, Ed. Casterman, Tournai, 1970.

يقول الدكتور غواش :

« ان هذه النزعة « الجنسية المثلية » تبقى في اغلب الاحوال كامنة ، ولا يعبر عنها الا بصداقة عميقة وانجذاب عاطفي بارز نحو رفيق او راشد من الجنس نفسه . اما التنفيذ الفعلي والخبرة الجنسية المكتملة ، فقليلا ما يحصلان ... » .

G.-Ph. Guasch : Trois questions d'adolescence, p. 31, in Le Groupe familial, No. 54, janvier 1972.

راجع ايضا :

C.S. Ford et F.A. Beach : Le Comportement sexuel chez l'Homme et l'Animal, pp. 167-168, Robert Laffont,
Marie-Thérèse Van Eeckhout : Nos enfants devant la sexualité, pp. 119-123, Casterman, 1966.

١٣٤ ـــ راجع :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, pp. 198-200.

١٣٥ ـــ يقول الدكتور جيلبير توردجمان ان الاختبارات الجنسية المثلية ، اذا تكررت واتخذت طابعا شهوانيا ، تؤدي في النهاية الى اقتران conditionnement بين الجنس وهذا المنبه stimulus المثلي ، وذلك لكون المراهقة فترة قابلة للتطبع بطابع جنسي معين بتأثير نمط من الاختبار . راجع :

Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, pp. 195-196.

وتقول مونيك غونو :

« ان الحياة في جماعة احادية الجنس ، دون انفتاح على العالم ، انما هي اكبر ضمانة لتحقيق الجنس المثلي . وقد يكون هذا التحقيق عابرا ، ولكن التنفيذ الفعلي يترك آثارا قد تكون نهائية احيانا ، ان لم يكن الا على صعيد الشك بالنفس » .

Monique Gueneau : L'Enfant et son désir d'aimer, p. 61, Le Centurion, 1971.

ويقول ادوار بروز في كتاب له عن التربية المختلطة في المدارس :
« ... ان كان هناك من اوضاع ماجنة ومن حالات جنس مثلي اليمة ، فانها توجد في معاهد البنات ومدارس الفتيان اكثر منها في المدارس المختلطة » .

Edouard Breuse : La Coéducation dans les écoles mixtes, P.U.F., 1970, pp. 89, 101.

١٣٦ — تقول ماري تيريز فان ايكوت :
« لكي تبلغ الحياة العاطفية عند المراهق ملء نموها ، يجب ان تتخلى عن الاهتمام النرجسي بجنسه الذاتي وان تتجه بشكل حاسم نحو العالم النسائي » .

Marie-Thérèse Van Eeckhout : op. cit., p. 121.

١٣٧ — يقول ارنست ال :
« يجب ان يتعلم الشباب ان يتحرروا من التأثير الاولي الذي يحدثه الجنس الآخر فيهم ، فيذهبوا الى ابعد من مجـــرد الانجذاب الجنسي ليتحققوا من قيمة الشخص او عدم قيمته . ولذا يجب ان يتعلموا ادراك الفوارق الشخصية . ولكن لا يمكن لأية نظرية ان تقوم ، في هذا المجال ، مقام الممارسة التي تتطلب معاشرة الجنس الآخر » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, pp. 179-180.

وتقول مونيك غونو :
« اذا كان المراهق قد مارس منذ الطفولة حيـــاة اجتماعيـــة منفتحة ، فهذا ما يسمح له عادة بأن يعرف الفتيات وبأن يقيم معهن علاقات عاطفيـــة سليمـــة ، دون كبت مفـــرط ، ومميـــزة حسب الاشخاص » . راجع :

Monique Gueneau : op. cit., p. 63, p. 62.

١٣٨ — راجع :

Jean-Claude Barreau : La Foi d'un Païen, pp. 33-34, Ed. du Seuil, Paris, 1967.

١٣٩ — راجع :

Dr. André Berge : La Sexualité aujourd'hui, pp. 75-76, pp. 78-81.

١٤٠ — يقول ارنست ال :
« ان هذا الاكتشاف لاعماقه الشخصية يخلق في نفسية الشاب الاعضاء التي ستسمح له بأن يفهم ايضا الكيان الداخلي لآخرين — وبادىء ذي بدء كيان الذين يماثلونه بالسن والجنس . ان الشبـــاب يشعر بعمق بتلك الحاجة الى التفهم . ان معاناته الشخصية علمته ان وراء وجه الآخر تختفي شخصية يمكن استكشافها ، لا بحب اطلاع عالم النفس ، بل بدافع حاجة عميقة الى الفهم المتبادل » .

Ernest Ell : op. cit., p. 171.

١٤١ ــ راجع :

Jean-Pierre Deconchy : op. cit., pp. 225-232.
J.A. Hadfield : op. cit., pp. 191-205.
Marc Oraison : Le Mystère humain de la sexualité, pp. 92-94.

١٤٢ ــ تقول المحللة النفسية هيلين دوتش في كتابها الشهير عن « نفسية النساء » : ان عند الفتاة المراهقة ما يشبه تلك الظاهرة ، اذ انها تقوم « بصيد لقلوب الذكور » يبقى فيه الطابع الجنسي للمشاعر اقل وعيا مما هو عند الفتى . تقول الكاتبة المذكورة :

« ان الرغبة بأن تكون محبوبة من كثير من الرجال وبأن تجمع « القلوب المحطمة » صفة مميزة للفتاة المراهقة » . راجع :

Hélène Deutsch : La Psychologie des femmes, tome 1, Enfance et Adolescence, p. 89, PUF, 1959.

١٤٣ ــ يقول الدكتور توردجمان عن هذه المرحلة :

« ... ما يثير شهوة المراهق ليس شخصية تدرك بكليتها بقدر ما هو ثيمة fétiche تحصر الاتصال بعلاقة بموضوع جزئي . فالذكر يفتش في المراة عن شعر اشقر ، عن ساقين حسني التناسق ، عن ردف او صدر ممتلئين ... » .

Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, p. 197.

راجع ايضا :

Henry Tavoillot : Une expérience d'éducation sexuelle, pp. 157-158.

١٤٤ ــ ويبين هنري تافواللو ، وهو اختصاصي بالتربية الجنسية عند المراهقين ، اهمية « الحاجات العاطفية ذات الاتجاه الفردي (ان يكون الفرد محبوبا ، ان يثير الاعجاب ، ان يؤخذ على محمل الجد) » في حياة المراهقين العاطفية . راجع :

Henry Tavoillot : op. cit., pp. 31-32.

١٤٥ ــ راجع :

Hélène Deutsch : op. cit., pp. 112-113.

يرى مارك اوريزون ان الاختبارات الجنسية الفعلية التي يمارسها فتى في السابعة او الثامنة عشرة من عمره مع شريكات له تمثل تجميدا لتطوره النفسي الجنسي في موقف ذي نمط استمنائي ، اكثر بكثير مما تشكل تقدما . راجع :

Marc Oraison : L'Harmonie du couple humain, p. 25.

١٤٦ ــ راجع :

Hélène Deutsch : op. cit., p. 23.

١٤٧ ــ راجع :

Michel Quoist : Aimer ou le journal de Dany, Les Ed. Ouvrières, Paris.

١٤٨ ــ في مجموعة رسائل تبودلت بين شاب أفـريقي وقس مسيحي اتخذه هذا الشاب مرشدا له ، نرى الشاب المذكور يكتشف الحب الناضج بعد لقائه باحدى الفتيات ، واذ بنظرته الى الجنس الآخر تنقلب ، فيكتب الى راعيه واصفا خبرته الجديدة :

« نعم اننا الآن . . . نكتشف بعضنا بعضا . وكل يوم يأتينـــا باكتشافات جديدة . والحقيقة هي ان الفتاة اقليم مجهول . والآن استطيع ان ارى لأول مرة كيف كنت اعمى حين نظرت الى الفتـــاة نظرتي الى فرشاة اسنان اي كأداة للاستعمال . وفوق ذلك كنت انوي ان « استعمل » واحدة لكي اعرف ماهية المرأة ــ يا للغباوة ! »

فالتر تروبيش : احببت فتاة ، ص ٩٣ ، دار منشورات النفير ، بيروت ، ١٩٧٣ .

ان النزعة الى اختبار حب ناضج على هذا النمط ، حب يعتبر فيه الآخر كائنا فريدا ومهما بحد ذاته ، ظاهرة نجدها عند كثيرين من الشباب ، حسب شهادة العديد من المشتغلين بعلم النفس وعلـــم الاجتماع . واليكم شواهد عنها مستمدة من أحد المجتمعات المدعوة « بدائية » من جهة ، ومن المجتمع الصناعي الغربي الحديث من جهة اخرى .

ففي مجتمع جزر تروبريان الذي يمارس فيه المراهقون الجنس بحرية كبيرة ، لاحظ مالينوفسكي عندهم ، مع ذلك ، تطورا نحو علاقة تزداد فرادتها وديمومتها تدريجيا فتمهد للـــزواج . يقـــول العالم المذكور :

« مع الزمن ، وكلما تقدم الفتيان والفتيات بالعمر ، تدوم علاقاتهم مدة اطول وتصبح الروابط التي تشدهم بعضهـــم الى بعض امتن واثبت . وعلى العموم ، يشاهد المرء عند ذاك نشأة ونمو تفضيل شخصي تتقهقر امامه شيئا فشيئا كل القضايا الغرامية الاخرى » .

B. Malinowski : La Vie sexuelle des sauvages du nord-ouest de la Mélanésie, p. 63, pp. 59-64, PBP, 1970.

اما المجتمعات الصناعية الغربية المعاصرة ، فقد يظن المرء لأول وهلة ، وبالاستناد الى بعض الظواهر التي تـــركز عليها وســـائل الاعلام ، ان الشبيبة فيها منجرفة بتيار من التهتك ولا تقيم وزنا الا لاشباع الشهوة . ولكن نظرة مطلعة وموضوعية الى الامور تضطر الى اعادة النظر في مثل هذا التصور . صحيح ان عددا متزايدا من الشباب هناك يرفض التقيد بقواعد خلقية تفرضها مجرد تقاليـــد موروثة ، ولكن عددا كبيرا من رافضي تلك التقاليد قد اكتشفـــوا قاعدة خلقية جديدة ، الا وهي وجوب ممارسة العلاقة الجنسية في

اطار علاقة شخصية صميمية .

فمثلا اجرت المؤسسة الاحصائية SOFRES تحقيقا حول « الشباب والحب » تناول فئة الشباب والفتيات الفرنسيين الذين تتراوح اعمارهم بين الخامسة عشرة والعشرين ، وقد نشرت نتائج هذا التحقيق في مجلة « الاكسبرس » (عدد ٦ آلى ١٢ آذار ١٩٧٢) .

٤٠٪ من الشباب الذين استجوبوا اجابوا انه سبق لهم ان قاموا بعلاقات جنسية ، ٤٩٪ قالوا انهم لم يمارسوا تلك العلاقات و ١١٪ امتنعوا عن الاجابة . ولكن الجدير بالذكر ان ٢٢٪ فقط من هؤلاء الشباب قالوا بأن شباب هذا العمر يحق لهم ان يمارسوا علاقات جنسية دون حب . راجع :

Aimé Savard : Couple et Mariage dans le monde moderne, pp. 12-13, in «Informations Catholiques Internationales», No. 411, 1 juillet 1972.

وقد اجري حديثا تحقيق ضخم بادارة الدكتور سيمون عن السلوك الجنسي عند الفرنسيين ، فطرح ثلاثمائة سؤالا على ٢٦٢٥ شخصا يمثلون الشعب الفرنسي بكافة فئاته . وما اظهره هذا التقرير ان كثيرا من الشباب الفرنسي يمارسون علاقات جنسية سابقة للزواج ، ولكن اكثرهم يمارسها في اطار علاقة شخصية تجمع الشريكين . فبالنسبة للفئة التي تتراوح اعمارها بين ٢٠ و ١٩ سنة ، اتضح ان اكثر الشباب لم يقدموا على اول علاقة جنسية الا بعد فترة من التعارف ، وان نصفهم كانوا يعرفون شريكهم في تلك العلاقة منذ اكثر من سنة ، والعلاقة الاولى تمت ، في ٤١ ٪ من الحالات ، مع الزوج المستقبل . راجع :

Odette Thibault : Le rapport Simon sur le comportement sexuel des Français, p. 20, in Hebdo-T.C., No. 1479, 9 novembre 1972.

وقد كتب ايمه سافار معلقا على هذه النتائج ونتائج اخرى كثيرة مماثلة اعطتها التحقيقات في بلاد اخرى :

« كل شيء يجري ... وكأن الشباب يطالبون بالحرية الجنسية لا ليمارسوها كيفما كان بل لاخضاعها للحب » .

Aimé Savard : op. cit.

يقول مارك اوريزون بهذا الصدد :

« عندما تسنح للمرء فرصة المناقشة والتفكير مع مجموعات مستمعين من الفتيان والفتيات المتراوحة اعمارهم بين ١٨ و ٢٥ سنة ، يلفت نظره فورا هاجسهم الرئيسي بأن يدركوا قيم الحب الحقيقية ويطلقوها . ما عدا بعض الشواذ ، طبعا ، يشعر المرء برغبة عميقة عند الشباب بأن يدركوا ، ابعد من التحريمات والانظمة ، المعنى الحقيقي للحياة الجنسية بالضبط في منظار بنيان

ايجابي للحب » .

ويستشهد الكاتب بهذه العبارة التي وردت في المشهد الهيبي الشهير « هير » : « لا للجنس دون حب » .

راجع :

Marc Oraison : Pour une éducation morale dynamique, pp. 96-97, Mame-Fayard, 1971.

وتقول اوديت تيبو :

« ينبغي ملاحظة **النسبة المئوية الضعيفة** للعلاقات الجنسية المتعددة او الجماعية ، مما يعطي هذه الممارسات قيمة احتجاج ضد اخلاق سلبية اكثر مما تكون علامة قناعة عميقة (...) اعتقد ان اغلبية الشباب يعتبرون الحب امرا رصينا - ولا يودون سوى ان يضفوا عليه طابع الديمومة والاختيار والحصرية ولربما كانوا فعلوا ذلك بأكثر سهولة لو كنا لهم قدوة في هذا المضمار » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 141-142.

وتعبر جاكلين برجريه عن وجهة النظر عينها ، فتقول :

« ... في هذا العصر الذي يتعالى فيه ضجيج الذين يفضلون المجون على الحب (...) في هذا العصر بالذات يترعرع ، اكثر مما في اي زمن آخر ، شباب يهتدون من جديد الى دروب الحب ... » .

Jacqueline Bergeret : Suite pour Eve, p. 150.

ويقول جورج موكو بالمعنى نفسه :

« ان كانت الاجيال الشابة تعيد النظر في كثير من القيم القديمة ، الا انها ، بالعكس ، تعطي قيمة للحب . انها تؤكد الحق بالحب حتى ، اذا اقتضى الامر ، ضد القيم الاكثر مادية منه . لذا ، فبالنسبة للأجيال الصاعدة ، يبقى الزوج couple المثال المرغوب ، رمز هذا الحب السعيد ... » .

Georges Mauco : Les Célibataires et le Célibat, pp. 200-201.

١٤٩ ــ راجع :

J.A. Hadfield : op. cit., p. 202.

١٥٠ ــ راجع :

J.A. Hadfield : op. cit., p. 204.

١٥١ ــ هذا ما سمي « بالصراع بين البغي والعذراء » .

راجع :

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 34.

ان الجذور العميقة لهذا الفصم تعود ، كما بين التحليل النفسي ، الى كون العقدة الاوديبية تستيقظ عند المراهق مع يقظة الجنس عنده ، مما يؤدي الى فك الشهوة عن الحب ، لأن المرأة

المحبوبة (وهي بالنسبة للعقل الباطن صورة عن الأم) لا يمكن ان تشتهى ، بموجب التحريم الاوديبي ، بينما المرأة المشتهاة لا يمكن ان تحب (والا اصبحت صورة عن الأم المحرمة) . راجع مثلا :

G. Tordjman : Clefs pour la Sexologie, p. 198.

راجع ايضا :

Anne-Marie Rocheblave-Spenlé : L'Adolescent et son monde, pp. 108-110, Ed. Universitaires, 1969.

Marc Oraison : L'Harmonie du couple humain, p. 24.

١٥٢ ـــ راجع :

Pierre Saurat : Pourquoi tant de colère ? p. 320, Ed. Robert Laffont, Paris, 1966.

١٥٣ ـــ راجع :

Pierre Saurat : op. cit., pp. 154-155.

١٥٤ ـــ راجع :

Pierre Saurat : op. cit., p. 369.

١٥٥ ـــ راجع :

S. Freud : Trois Essais sur la théorie de la sexualité, p. 111.

S. Freud : Contribution à la psychologie de la vie amoureuse, Revue Française de Psychanalyse, 1936, No. 1, p. 11, cité par A. Plé : Freud et la Morale, p. 125.

يقول الدكتور توردجمان :

« ان النضج النفسي الجنسي يحدد ، فيما يحدد ، بالقدرة على جمع العاطفة والرغبة على موضوع واحد . حتى ان درجة قدرة الانسان الجنسية تقاس ، حسب رأي فرويد ، بهذا المقياس . الا ان الكثيرين لا يبلغونه ابدا » .

Gilbert Tordjman : op. cit., p. 264.

تلك هي حالة الدون جوان :

« ان التأكيد بأن دون جوان عاجز جنسيا ليس مفارقة الا بالظاهر . انه عاجز عن الحب ، وهو يعرف ذلك . اما ما يحاول ان يخفيه في هربه الى الامام ، من مغامرة الى مغامرة ، انما هو العجز الجنسي الذي لا بد وان يعتريه مع شريكة ما لو بدأ يشعر تجاهها بعاطفة اكثر اكتمالا من مجرد اندفاع الرغبة » .

G. Tordjman : op. cit., p. 268.

راجع ايضا :

Dr. Bernard Muldworf : L'Adultère, p. 61.

Hans Zulliger : Bandes, Hordes et Communautés, pp. 88-89.

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 249.

١٥٦ — راجع :

St. Augustin : Confessions, p. 61, «Le Livre de poche chrétien», 1962.

١٥٧ — في روايـة « الثعلب » لدافيد ـ هربرت لـورانس ، يصور لنا الكتاب التحول الذي طرأ على الشاب هنري عندما تجلت له فجأة ، ولأول مرة ، انوثة الفتاة مارش التي احبها :

« ... يا للغرابة ، فجأة احس نفسه رجلا ، وانه لم يعـد مراهقا . احس نفسه رجلا ، مع كـل وزن مسؤوليـة رجـل . فاجتاحت نفسه طمأنينة غريبة ورصانة عجيبة . احس نفسه رجلا ، هادئا (...)

« لقد كان فستانها يجعلها رقيقة وفاتنة . فأتاه ما يشبه فكـرة مسؤولية ابدية » .

David-Herbert Lawrence : Le Renard, p. 96, «La Petite Ourse», Lausanne, 1956.

١٥٨ — ان تلك الحقبة تفترض مساهمة الانسان بكليتـه في الحب . يقول ارنست ال بهذا الصدد :

« عندما تقول الارادة نعم لاختيار الجسد والشعور والعقل ، عند ذلك فقط يكون الحب قد وجد اسسا له في مجموعة الانسان ، عند ذاك يكون حبا ناضجا » . راجع :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, pp. 188-190.

ويقول الدكتور اندره برج :

« ... ان التناغم والتوافق بين النزعات الجسدية والعاطفية والعقلية والروحية هو علاقـة حب كامل . كلمـا ازدادت الميول المجتمعة على المحبوب ، كلما ازداد الحظ بالسعادة » .

Dr. André Berge : Le Métier de parent, p. 45.

ويقول الدكتور توردجمان بالمعنى نفسه :

« يمكن اذا تحديد النضج على انه القدرة عـلى جمع الحواس والفكر والقلب على شريك واحد من الجنس الآخر » .

G. Tordjman : Clefs pour la Sexologie, p. 198.

ان مهمة المراهقة ، براي هيلين دوتش ، هي تحقيق هذه الحقبة التي يتخطى فيها المرء ذاته ويوحدها بان واحد :

« ان مهمة المراهقة هي قبل كل شيء الانتقـال من حقبة من النرجسية الحادة الى حقبة من العلاقات الموضوعية ، وفي تحقيق التوافق ، ضمن هذه العلاقـات ، بين مشـاعر المحبة والنزعـات الغريزية » .

Hélène Deutsch : La Psychologie des Femmes, tome 1, p. 105.

١٥٩ — في نهاية كتابه القيم عن « الخيانة الزوجية » ، يتصدى

المحلل النفسي الماركسي الدكتور برنارد مولدورف للذين يستلهمون افكار رايش أو ماركوز لينادوا بأن « الحرية الجنسية » لا يمكن تحقيقها الا في سعي دائم الى لقاءات جديدة . يأخذ عليهم تجاهلهم للمتطلبات النفسية العميقة التي لا يمكن للانسان الا ان يفشل في سعيه الى السعادة ان لم يأخذها بعين الاعتبار . يقول :

« من باب الديماغوجية (وقد يكون من باب الخداع) ان يقال : كل شيء ممكن طالما الرغبة تريده . انها لنفس التهريج المخيف كأن يقال لرجل يرمي نفسه من اعلى برج ايفل : « حرك يديك ، وستطير كالعصفور » .

Bernard Muldworf : L'Adultère, p. 193.

وايضا :

« الحرية الجنسية الحقة انما هي في معرفة الضرورات النفسية والعاطفية في كل لقاء حبي .

ان الوحدة المستقرة ، الطويلة الامد ، هي (حتى اشعار آخر) اقرب ما يمكن الى هذه الضرورات النفسية والعاطفية ، وهي التي تعطي افضل الامكانيات للانشراح الشخصي . ففي هذه الوحدة يجد الفرد اعلى درجة من التفهم والتضامن ، فيها يجد هذه الطمأنينة العميقة والاساسية التي لا يمكن للمجتمع ان يقدمها له على اكمل وجه . في تلك الوحدة المستقرة يحقق الحب كل امكانياته. اما المزاوجات العابرة فأنها لا تعطي شيئا . قد تروي عطشا عابرا ، ولكنها لا تحمل تلك التبادلات الانسانية الضرورية لحياتنا ضرورة الهواء الذي نستنشقه » .

B. Muldworf : op. cit., p. 192.

١٦٠ — يقول رينه سيمون :

« ان الوحدة ، والامانة ، والخصب ، والمؤسسة ، يجب ان تفهم ، على انها ابعاد تسمح للحب بان يتكون على حقيقته ، اكثر مما هي مبادىء او قيم قابلة للترجمة الى قواعد ونواميس » .

René Simon : La Famille se meurt... (Hebdo-T.C., No. 1463, 20 juillet 1972, p. 16).

١٦١ — ان هذا التوافق بين الزواج ومتطلبات الحب الاساسية، هو ما يفسر ، برايي ، ذلك التحبيذ الذي لا يزال يلقاه الزواج بين شباب المجتمعات المصنعة ، رغم الموقف الرفضي المنتشر بينهم حيال التقاليد .

واليكم بعض الشواهد على هذه الظاهرة :

يذكر روجيه موكيللي في كتابه « سيكولوجية الحياة الزوجية » ، انه « سنة ١٩٠٠ ، كان خمسة من الف من الرجال فقط يتزوجون قبل العشرين ، و ٣٥ بالألف من النساء . اما في ١٩٧٠ ، فقد اصبح هذان الرقمان ٣٥ بالألف من الرجال و ١٩١ بالألف من النساء. . . » .

Roger Mucchielli : Psychologie de la vie conjugale, note de la page 84, Les Editions ESF, Paris, 1973.

ويقول الدكتور مارك لاندري :

« في تقرير سيمون ، مثلا ، ٩٠٪ من الافراد المستجوبين ، حتى في فئة الذين تتراوح اعمارهم بين ٢٠ و ٢٩ سنة ، يبدون مؤيدين للعلاقة الشرعية ، ٥٪ فقط يحبذون العلاقة الحرة التي لا تقوم على عقد حقوقي » .

Dr. Marc Landry : La Famille en devenir, p. 24, in «Le Groupe familial», No. 61, octobre 1973.

وقد كتبت أوديت تيبو :

« الواقع ان الزواج مرغوب من اغلبية الشباب (٩٠ ٪ ، حسب تحقيق جرى سنة ١٩٦٦) ؛ وان الرغبة في الديمومة والامانة منتشرة جدا (بنسبة ٨٦٪ حسب تحقيق جرى سنة ١٩٦٩) . احادية الزواج تبقى القاعدة المثالية ... » .

Odette Thibault : L'Orientation nuptiale. La science au service du couple (Hebdo-T.C., No. 1503, 26 avril 1973, p. 11).

وكتب روجيه موكيللي في المرجع المذكور اعلاه :

« ملفت للنظر ان الأمانة ، التي أعلنها الاباحيون قيدا لا معنى له ، كان يعتبرها ، سنة ١٩٥٧ ، ٨٢٪ من الشباب اساسية في الحب بالنسبة الى كلا الشريكين . اما سنة ١٩٦٩ فقد اصبح هذا الرقم ٨٦ ٪ (حسب استقصاء اجرته جريدة الاكسبرس) » .

Roger Mucchielli : Psychologie de la vie conjugale, note de la page 84.

ويقول جورج موكو :

« حاليا ، يتزوج الاوروبيون في سن مبكرة اكثر فأكثر ، ايا كان البلد الذي نشأوا فيه ، وعدد الذين يبقون عازبين منهم في تناقص مستمر . ان هذه النزعة تلفت النظر لأنها تتواجد مع كون الشباب يتخذون بسهولة موقف الرفض ويعيدون النظر في القيم القديمة . الزواج والعائلة يبقيان اذا بالفعل ، ورغم الانتقادات الموجهة اليهما ، فيما تبقى الشبيبة متمسكة بها تمسكا قويا » .

Georges Mauco : Les Célibataires et le Célibat, p. 62, p. 65, p. 200.

ويقدم الكاتب نفسه مثلا يعبر عن هذا التواجد عند الشبيبة بين الموقف الرفضي والتمسك بالزواج . يقول مستشهدا بنتائج تحقيق جرى بين طلاب معهد فرنسي شهير :

« حتى طلاب الـ .E.N.A تلك المدرسة الوطنية للادارة التي تقدم للدولة كوادرها ... يبدون رافضين للدولة وللمجتمع وقيمه التقليدية ، وليس للزواج » .

Georges Mauco : op. cit., p. 185.

وقد كتب لويس روسيل ، وهو احد بحاثي المؤسسة الوطنية الفرنسية للدراسات الديموغرافية ، معلقا على نتائج تحقيق اجري في المانيا الغربية واظهر ان اغلبية الشباب يتمنون اختبارا جنسيا قبل الزواج ، قائلا :

« بالواقع يظهر التحقيق (المذكور) انه في اغلب الحالات (اي حالات حصول علاقة جنسية قبل الزواج) يجد المرء نفسه امام علاقات احادية ومستمرة نسبيا » ، اي امام « **نمط اتحاد يقلد الزواج** » .

Cité par Aimé Savard : Couple et Mariage dans le Monde moderne, p. 8.

هكذا فان تقييم الحب لدى شباب البلدان المصنعة يدفعهم ، رغم مواقفهم الرفضية ، الى تحبيذ الزواج ، مع انتقادهم لبعض مظاهره الراهنة ، لا بل الى اضفاء طابع مماثل للزواج حتى على العلاقات الجنسية التي يقيمونها قبله .

انهم بهذا يؤكدون الصلة العميقة الكامنة بين الحب والزواج ، تلك الصلة التي تؤكدها ايضا ، من جهتها ، دراسة مالينوفسكي لشعب كانت حضارته على نقيض المجتمع الاوروبي المصنع . فقد بين هذا البحاثة كيف ان الحب ، عند سكان جزر تروبريان ، من الدوافع الهامة التي تحدو بشريكين ، يساكنان احدهما الآخر جنسيا ، الى الارتباط بروابط الزواج غير القابلة للانحلال .

B. Malinowski : La Vie sexuelle des sauvages du Nord-Ouest de la Mélanésie, pp. 70-73.

١٦٢ — راجع :

André Alsteens : Dialogue et Sexualité, p. 134, Ed. Casterman, Feuilles Familiales, Tournai, 1969.

Abel Jeannière : Anthropologie sexuelle, pp. 172-174.

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, pp. 16-17.

وتوضح اوديت تيبو الفرق بين الزواج وبين معاشرة بلا زواج مستمرة ، فتقول ان تلك المعاشرة تفترض امكانية التراجع ، تحفظ خط الرجعة ، مما يحول دون كلية العطاء وبالتالي يعارض ، منذ الاساس ، قيام رباط متين . بالعكس ، فان الالتزام الكلي تجاه الآخر ، امام الناس ، وبالنسبة للمؤمنين امام الله ، يتوافق مع تلك الحاجة الى المطلق في المكان والزمان التي هي في صميم كل حب صادق » . راجع :

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 128-129.

ويقول الدكتور اندره مورالي — دانينوس :

« ... الزواج وحده هو البرهان المتعذر دحضه ، العميق

والنهائي بالظاهر ، على ان شخصا ما قد اريد وقبل من الآخر .
بما ان كل انسان يحمل في ذاته الجرح غير المندمل الذي سببه له ما احسه من رفض الوالدة له (وهو الشعور الذي يلازم انفصال الوليد التدريجي عن الأم ليصبح كائنا مستقلا) ، لذا فان الزواج يظهر للعقل الباطن بمثابة الميناء الهادىء على طريق الحياة القاحلة احيانا » .

Dr. André Morali-Daninos : Evolution des mœurs sexuelles, p. 157, Casterman, 1972.

١٦٣ — راجع :

Marc Oraison : Le Célibat, pp. 17-19, p. 25, pp. 27-28.

تقول المرشدة الزوجية مرغريت لامبير :

« عندما يتشكل بنيان حب حقيقي ، ياتي وقت لا بد للفرح فيه ان ينفجر (...) فالثنائي لا يسعه ان يستمر في اخفاء سعادته . يشعر بحاجة الى الاعلام بها . هنا يكمن على الارجح اصل الاحتفال الذي يحيط بزوج جديد في كل المناطق والحضارات .

« بعض الشباب ، اليوم ، يرفضون روح الاحتفال هذا . وهذا يعود على الارجح الى التشويه الذي الحق به ، اذ جعل منه مجموعة واجبات مفرغة من معناها ، مستثمرة تجاريا ، مقولبة بموجب نماذج يستعبد لها الناس تقريبا ، وقد فقد منهـا كل هـاجس التعبير الشخصي وحصرت ضمن تقاليد جامده (...) » .

« ان المشاركة في الفرح تليق باتساع الكيان الذي يحققه الحب. وهنا نلتقي بمعنى الزواج ، شرط ان ننفض عنه ، هو ايضا ، الغبار الذي جمده » .

Marguerite Lambert : Amour vécu. Journal d'une conseillère conjugale, pp. 64-65, Resma, 1973.

راجع ايضا :

Marc Oraison : Pour une éducation morale dynamique, p. 103, Mame-Fayard, 1971.

١٦٤ — يقول اوسفالت كوله :

« كثيرا ما تسمع العبارة : الزواج مقبرة الحب . الا ان المرء ، اذا قام بتحقيق صغير ، يلاحظ ان الذين يتلفظون بهذه الجملة كانوا دائما حفاري قبر حبهم » .

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, p. 103.

١٦٥ — تبين اوديت تيبو ان الزوج couple انما يقدم اوفر حظ لتحول الحب النرجسي والاستيلائي الى حب معطائي .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 75.

وتصف مرغريت لامبير خبرة الزواج بقولها :

« انه تدرب بالمعنى الكامل للكلمة . انه الاكتشاف البطيء

والشاق للآخر من حيث هو آخر ، وللذات تجاه الآخر ، ولجنسين لا يشعران ولا يتفاعلان بالطريقة نفسها » .

Marguerite Lambert : Amour vécu, p. 68.

١٦٦ — يقول الدكتور برنار مولدورف :

« في الحب تجربة نرجسية اصلية : الا وهي ان يكون الحب عبارة عن حب الفرد لنفسه ، من خلال الآخر ، بفضل الاخر ، بفعل وجود الاخر . هي ان يفتش المرء في الاخر عن انعكاس صورته الذاتية ، كما تشهد تلك الظاهرة الا وهي انه في كثير من الحالات العصابية ، يدفع المرء شعوره بالنقص الى ان ينظر باستمرار الى ذاته في مرآة ، كأنه يشاء من وراء ذلك ان يتيقن من وجوده » .

Dr. Bernard Muldworf : Le Métier de père, p. 167.

١٦٧ — في المسرحية التي وضعها الشاعر اللبناني الكبير جورج شحاده باللغة الفرنسية ، « قصة فاسكو » ، يرينا الكاتب بطلته مرغريت تفتش عن مجهول حلمت به فوقعت في حبه . في الطريق ، تستغرق في تأملاتها ، وقد بقيت وحيدة قرب كلب مصبر ، فيديل ، وطبل . تقول :

« انني وحيدة ، مع فيديل وطبل ... وحيدة مع نفسي (...) وانا لا اعرف وجه حبي (...) » .

« ان اللواتي يعتقدن انني جننت لجريي وراء ظل ... ما الذي تعانقنه عندما يكون المحبوب الى جانبهن ؟ اليس هو حلم حبهن ؟ فما الذي تملكنه اكثر مني ؟ انني وحيدة مع طبل وفيديل ... » .

Georges Schéhadé : Histoire de Vasco, 4ème tableau, scène 5, pp. 148-149, Ed. Gallimard, Paris, 1956.

١٦٨ — تقول اوديت تيبو :

« ... من ابسط شروط احترام الآخر ان يقبل من حيث هو « آخر » ، اي ليس مختلفا عن الذات تحديدا وحسب ، بل مختلفا عما كنا ننتظر ان يكون » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 60.

وتضيف ان القدرة على الاضطلاع بالآخر على حقيقته انما هي من علامات التوازن العاطفي . وتوضح انه ينبغي ليس فقط ان نقبل الآخر دفعة واحدة ، بل ان « نختاره » من جديد كلما تطور مع الزمن وبتأثير الحياة المشتركة . راجع :

Odette Thibault : op. cit., pp. 74-75.

راجع ايضا :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 187.

١٦٩ — راجع :

Denis de Rougemont : L'Amour et l'Occident, p. 241, coll. «10-18», Union générale d'éditions, Paris, 1962.

Ignace Lepp : Psychanalyse de l'Amour, pp. 198-199.

١٧٠ ـــ راجع :

Ignace Lepp : op. cit., p. 257, p. 128, pp. 238-240, p. 301, note 5 du livre VI.

Les Lettres d'amour de François et d'Antoinette, p. 59, Les Editions Ouvrières, Paris, 1967.

١٧١ ـــ راجع :

Molière : Le Misanthrope; acte II, scène 4.

١٧٢ ـــ راجع :

André Gide : Les Faux-Monnayeurs, p. 205, Gallimard, Paris, 1963.

تقول اوديت تيبو :

« ان ظاهرة التكرار تضعف أثر الافضل وتجعل الاسوأ اقل احتمالا » . راجع :

Odette Thibault : op., cit., p. 49.

راجع ايضا :

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, pp. 101-102.

١٧٣ ـــ راجع :

Louise Despert : Enfants du divorce, pp. 211-212.

Louis Millet : L'Agressivité, p. 61.

١٧٤ ـــ راجع :

Louise Despert : op. cit., p. 212.

١٧٥ ـــ راجع :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 187.

١٧٦ ـــ تقول اوديت تيبو :

« ان جلاء النظر عامل لا يستغنى عنه من اجـــل دوام الحب (. . .) (اذ) لا يمكن ان يبنى حب حقيقي ، وبالتالي دائم ، على الوهم . ولكن رؤية الاشياء كما هي ، والآخر كما هو ، والذات في عيني الآخر ، هذا لا يعني « ان الامور حسنة كما هي » وان على الآخر « ان يقبل الاشياء هكذا او ان يرفضها » . انما يعني قبول الواقع **كقاعدة** انطلاق ، مع رجاء وارادة تحسينه » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 43.

١٧٧ ـــ من هنا تبرز ، كما يوضح ارنست ال ، من جهـــة ضرورة اختيار شخصي حقيقي للشريك ، ومن جهة ثانية افساح فترة للحب لكي ينضج من خلالها قبل ان يؤدي الى الزواج . راجع :

Ernest Ell : op. cit., pp. 187-188.

١٧٨ ـــ راجع :

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, p. 103.

١٧٩ — راجع :

Ernest Ell : op. cit., p. 186, p. 242, p. 260.

١٨٠ — في كتاب وضعه فريق من المرشدين الزوجيين الاميركيين، يوضحون ان قبول الفوارق الاساسية ، على الصعيد الفردي والجنسي ، شرط من شروط نجاح الزواج ، وهو يتطلب نضجا عاطفيا . راجع :

Bannister et als : Problèmes du mariage, p. 42, PUF, 1959.

ويقول المحلل النفسي جورج موكو :

« ان انسجام الزوج couple يتطلب قبول الآخر في اختلافه بعد التجرد من الخوف من هذا الآخر » .

Georges Mauco : Les Célibataires, pp. 35-36.

١٨١ — يقول الدكتور اندره مورالي — دانينوس :

« ... عندما يصل القرينان الى اتصال لا حد له ، فان احدهما دوما هو « اقوى » من الآخر ، اكثر اعتبارا او علما او ديناميكية او اهمية . والخطر الكبير ، في هذه الحالة ، هو ان يبتلع الاقوى الآخر ويخفيه في ذاته بعملية شبه هضمية . اما نتيجة هذا الابتلاع فهي اختفاء الآخر من حيث هو شخص مستقل وكامل وجدير بالحب » .

Dr. André Morali-Daninos : Evolution des mœurs sexuelles, p. 136.

وتقول اوديت تيبو في مقال لها :

« لا يجب الخلط بين القرب والاختلاط . ونود انْ ندخل هنا مفهوما قد اهمل بافراط مع انه اساسي . الا وهو مفهوم **المسافة المثلى** distance optimale يمكن تحديدها على انها المسافة التي ينبغي مراعاتها بين الكائنات لئلا يشعر بحضور الآخر وكأنه تدخل وعدوان فيثير ردود فعل دفاع وعدوان (...) » .

« تكوين زوج لا يقوم بتخلي المرء عن فرديته الذاتية ولا بتضحيته برقع كاملة من شخصه ليدخل في ذات قالب الآخر ، مما قد يؤخذ على هذا الآخر فيما بعد (...) ان غ . و ن . اونايل (في كتابهما « الزواج المنفتح ») يعارضان الزوج الموحد «réducteur» بالزوج المتآزر «synergique» ، حيث تغتني وتتفتق شخصية كل واحد بفضل الآخر (...) .

« مجمل الكلام ، ان على كل زوج ان يفتش عن توازنه في جدلية التباعد والتقارب ، الالتحام والانفراد . فالزوج ، مع انه مؤسس على نوع من الارتباط المتبادل بين الطرفين ، يجب ان يكون اجتماع شخصين حرين ومستقلين » . راجع :

Odette Thibault : Le couple en danger de «fusionite» (Hebdo-T.C., No. 1530, 1 novembre 1973, p. 22).

راجع ايضا :

Dr. Charles Odier : L'Angoisse et la Pensée magique, pp. 188-189, Delachaux et Niestlé, 1966.

Dr. André Berge : L'Enfant au caractère difficile. p. 144.

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 114.

١٨٢ — راجع :

Jean Lacroix : L'Echec, p. 48, P.U.F., Paris, 1969.

١٨٣ — راجع :

Odette Thibault : Le couple, cette équation à deux inconnues, in Témoignage Chrétien, No. 1364, 27 Août 1970, p. 19.

تقول ايضا اوديت تيبو :

« آن الصراع ، وهو ظاهرة انسانية وجودية ، سوف يكون ابدا قاعدة الزوج وعنصرا ضروريا لحياته ونموه .فأذا كان الغلو في الصراع يقود احيانا الى القطيعة ، فان غياب الصراع يعني الموت » . راجع :

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 20-21.

وفي موضع آخر تقول :

« يجب ان تكون (للشريكين) شجاعة قبول بعض المجابهات (غير العنيفة) التي من شأنها ان تكون مصدر تقدم وان تساعد على تكيف متبادل افضل — الا اذا ارادا ان يعيشا حياتين متوازيتين، تحديدا لن تلتقيا ابدا ! » .

Odette Thibault : op. cit., p. 44.

وايضا:

« ان السيطرة على العدوانية لا تعني كبحها او كبتها . انما تقوم خاصة على استخدامها في خط بناء » .

من هنا تنطلق الكاتبة لتبين انه يمكن استخدام الصراع داخل الزوج من اجل التقدم . وتستشهد بدراسة قام بها اخصائيان نفسيان اميركيان ، غ. واخ وب. وايدن . فقد اختارا خمسين زوجا ودرسوها بقصد تحديد « الزوج المثالي » ، فاتضح لهما « ان الزوجين الحقيقيين الوحيدين (في هذه المجموعة) كانا اللذين يتناقش افرادهما ويعتبران مفهوم الصراع طبيعيا كمفهوم الغذاء » .

وتضيف الكاتبة :

« يجب ان نرى علاقات الزوج على انها صراع مثمر ، على حد تعبير هنري ميلر » . راجع :

Odette Thibault : op. cit., p. 57, pp. 77-78.

اما المرشدة الزوجية رولاند دوبون ، فقد كتبت ، مستشهدة بدورها بدراسة واخ ووايدن (المنشورة بالفرنسية تحت عنوان « العدو الحميم ») قائلة :

« على الصعيد الزوجي ... بداوا يدركون ان « المشاجرات لا بد منها بين شريكين راشدين » (واخ ووايدن : العدو الحميم) . لا بل اكتشفوا ، اكثر من ذلك ، ان المشاجرات اذا « أحسن توجيهها » وتلتها مصالحات ، قادرة ان تساعد على انماء الألفة العميقة . ان هذا المفهوم يسمح بنزع طابع التهويل عن كثير من الصراعات التي يمكن ان تكون ، اذا نظرنا اليها من هذه الزاوية ، مفيدة للازواج couples ... » .

Rolande Dupont : Le Conseil conjugal et familial, pp. 47-48, Casterman, 1972.

وقد كتبت انغريد تروبيش ، زوجة القسيس فالتر تروبيش ، الى فتاة افريقية استشارتها بصدد علاقتها بالشاب الذي تحبه ، قائلة :

« الاختلاف في وجهات النظر ليس امرا صالحا فحسب ، بل انه ضروري • ان زوجي يتردد احيانا في تزويج شخصين لم يختلفا البتة » .

فالتر تروبيش : احببت فتاة ، ص ١١٨ ، دار منشورات النفير ، بيروت ، ١٩٧٣ .

١٨٤ — راجع :

Dr. Jacques Sarano : Connaissance de soi, Connaissance d'autrui, p. 137, Ed. du Centurion, Paris, 1967.

١٨٥ — راجع :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, pp. 190-194.

١٨٦ — يقول فالتر تروبيش :

« ان اتحاد الرجل والمراة في جسد واحد له معنى عميق في ذاته بصرف النظر عن الاولاد » .

فالتر تروبيش : المرجع نفسه ، ص ٣٤ .

١٨٧ — راجع :

Paul Evdokimov : op. cit., p. 167.

تقول اوديت تيبو :

« اذا كان المرء يعيش جنسه بشكل منشرح ، فالرغبة في الطفل بديهية عنده (...) اذا كان الخصب سبب الحب ، على الصعيد البيولوجي ، فهو يصبح ، على الصعيد النفسي ، نتيجته ، هكذا تنعكس روابط السببية » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 105-106.

وتستشهد الكاتبة بهذه الكلمات لهنري ميلر :

« ينبغي للطفل ان يكون ثمرة الروح ، ثمرة الحب ، قبل ان يكون ثمرة الجسد الذي ليس سوى وسيلة لانجابه » .

كما انها توضح اهمية الرغبة بالطفل منذ قبل ولادته وتبين المأساة التي يعاني منها الولد غير المرغوب فيه . راجع :

Odette Thibault : op. cit., p. 108.

راجع ايضا :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 262.

١٨٨ — يقول أ.س. نايل :

« ... ان ولد والدين لا يحب احدهما الآخر له حظ قليل بأن ينمو بشكل سليم ، لأن العادة الشاملة عند هذا النمط من الوالدين هي ان يحملوا الولد نتيجة حرمانهم » .

A.S. Neill : Libres enfants de Summerhill, p. 264, Maspéro, 1973.

وتقول جاكلين برجريه :

« ... ان العلاقة بالطفل تشوه اذا لم يستطع الرجل والمرأة في الزوج ان يحب احدهما الآخر » .

Jacqueline Bergeret : Suite pour Eve. La Femme et sa psychanalyse, p. 142, Le Centurion, 1973.

١٨٩ — راجع :

Marc Oraison : Le Mystère humain de la sexualité, p. 133.

١٩٠ — تقول الاخصائية النفسية بياتريس ماربو — كليرانس في كتابها « نفسية الامهات » :

« بما انهما (الزوجين) يحبان احدهما الآخر ، سيحبان الطفل ، الذي هو بالنسبة لكل منهما انعكاس الآخر . وبما ان العلاقات البشرية جدلية دائمة ، فالحركة العكسية تقوي ايضا روابط الزوج . اذ انه في الطفل تتلاقى الاهتمامات نفسها ، والقلق نفسه ، والحنان نفسه ، انه المكان الذي يلتقي فيه الوالدان اذا ضلا الطريق لبرهة » . راجع :

Béatrice Marbeau-Cleirens : Psychologie des mères, pp. 65-66, Editions Universitaires, 1967.

وعن العلاقات المتبادلة بين الحب الزوجي والحب الامومي عند المرأة ، راجع :

B. Marbeau-Cleirens : op. cit., pp. 47-48.

١٩١ —

cité par Mariane Roland Michel : Attendre un enfant, p. 54, Ed. Casterman, Tournai, 1969.

راجع ايضا :

id, ibid, pp. 162-163.

هذا صحيح بالنسبة للرجل ايضا كما يبين المحلل النفسي ، الدكتور برنار مولدورف ، في كتابه « مهنة الابوة » :
« منذ اللحظة التي يعايش فيها رجل امراة ، ويحب هذه المراة ، يتمنى ان يكون له طفل صادر عن هذا الحب . ان عاطفة الأبوة تولد على ذات صعيد حب الرجل لزوجته » .

Dr. Bernard Muldworf : Le Métier de père, p. 16.

١٩٢ — راجع :

André et Hélène Isnard : On pourrait tellement mieux s'aimer, pp. 140-141, Ed. André Isnard, Lyon, 1972.

١٩٣ — راجع :

Antoine de Saint-Exupéry : Terre des Hommes, pp. 234-235, «Le livre de poche», 1959.

Henry Tavoillot : Une expérience d'éducation sexuelle, p. 184.

١٩٤ — في روايتها « الغرفة الحمراء » ، تصور لنا فرنسواز ماله — جوريس كيف ان هيلين ، بطلة الرواية ، اذ وقعت ، مغلوبة على امرها ، في حب جان ، شعرت بشفقة تستيقظ فيها تجاه البؤساء ، لم يكن لها عهد بها البتة فيما قبل :
« لم اكن اريد ، لم اكن اريد ان ادخلهما في حبي ، كنت اريد ان اغلق على قلبي حول جان ، حوله وحده ، وان اترك كل باقي العالم خارجا . ولكن هل كان هذا الامر ممكنا ؟ الا يفتح كل حب حقيقي ثغرة يدخل منها ، دائما وابدا ، مزيد من الحب ؟ » .

Françoise Mallet-Joris : La Chambre rouge, p. 275, Ed. «J'ai lu», Paris, 1972.

١٩٥ — يقول ادمون بربوتان ان على الاسرة « ان تشع الى ابعد من حدودها الذاتية ، باستقبال الغير في فرح المنزل ، بالتزام الزوجين في المجتمع البشري ... » . ويضيف قائلا :

« ... عندما تكون (الأسرة) حاصلة على نعمة الحب ،
فكيف لها ، تجاه كل هذه النداءات ، هذه الشدائد ،
هذا النقص في الحب ،
كيف لها ان تحتفظ بهذه النعمة لنفسها ؟
الا يكون ذلك ضيقا ، انطواء على الذات ،
انانية لا واعية ، تهديدا لحب الأسرة نفسه ؟
ان الحب يقود الى العطاء .
ويغتذي من هذا العطاء » .

Edmond Barbotin : Croire, pp. 147-148, Desclée, Paris, 1971.

ويقول الكاتب الفرنسي جاك ده بوربون — بوسيه :
« ما هو حقا معاد للمجتمع ، انما هو الانطواء النرجسي على

الذات . ولكن الحب وحده هو بالضبط ما يستطيع ان يحطم السور الذي ينزوي الفرد داخله عمدا ، وعندما اقول ذلك اتحدث عن امر عشته .

« ولكن هناك ما هو اكثر من ذلك بكثير . ان الحب المطلق (بهذه العبارة يشير الكاتب الى الحب الانساني المكتمل) يمنح قوة داخلية تسلح المرء للعمل (...) عندما يتحقق التوازن العاطفي بشكل كامل ، يحس الرجل والمراة بأنهما حران ومتفرغان لأية مهمة كانت . وبالعكس ، كم رأيت من مهن سياسية عظيمة تنهدم بفعل اختلال عاطفي دائم ! ان الحياة الحميمة المنسجمة تسمح للمرء بأن يقوم بعمل اجتماعي فعال » .

Jacques de Bourbon-Busset : Radioscopie du bonheur, p. 83, in Oui au bonheur, Semaine des Intellectuels Catholiques 1970, Desclée de Brouwer, 1970.

واليكم بعض الشواهد عن خصب الحب في الميادين التي تتعدى الاسرة .

ابدا بشاهد ادبي لا بد وانه يستلهم واقع الحياة . في رواية سهيل ادريس ، « اصابعنا التي تحترق » ، تستعيد الهام راضي تذكار رحلة قامت بها مع سامي الى مصر اثر زواجهما الذي كرس الحب الذي جمع بينهما ، فتقول :

« لقد سألتك يومذاك ، للمرة الاولى ، عما اذا كنت تحب الاولاد ، فكان جوابك انهم سيكونون فرحتك الدائمة . وبعد ان تحدثنا مليا في الامر ، صمت هنيهة لتقول :

— اما اذا لم نرزق اولادا ، فسنظل نعتبر « الفكر الحر » (مجلة سامي) ابنتنا وقرة عيننا . وسنظل نعنى بها حتى تترعرع وتنمو وتملأ الدنيا .

وكان طبيعيا يا سامي ان اعاهد نفسي يومذاك ان احافظ معك على « الفكر الحر » كما كنت سأحافظ على اولادي » .

سهيل ادريس : اصابعنا التي تحترق ، ص ١٨٥ ، منشورات دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٧ .

وقد كتبت آن فيليب في مذكرات مؤثرة روت فيها ذكريات الحياة المشتركة القصيرة التي عاشتها مع زوجها الممثل جيرار فيليب قبل ان يختطفه الموت وهو لا يزال في شرخ الشباب ، قائلة :

« طيلة سنتين توقعنا انه سيتاح لنا ان نبني انطلاقا من حبنا . ان نبني اطفالا ، مهنة ، صداقات ، منازل ، وربما ان نساعد على بناء عالم افضل . وها ان زمن التحقيق قد اقبل . واذا بنا مهندسان منذهلان » .

Anne Philipe : Le Temps d'un soupir, p. 29, «Le Li-

vre de poche», 1970.

ومن باب اشعاع الحب الزوجي خارج دائرة الأسرة ، يذكر المفكر الارثوذكسي الفرنسي المعاصر ، اوليفيه كليمان ، الدور الذي يمكن ان يلعبه الزوج الذي يؤلفه الكاهن المتزوج مع زوجته . فقد كتب متحدثا عن زوجة الكاهن :

« انها تمارس خدمة حقيقية تحول دون انغلاق حنانها وامومتها على انانية عائلية بل توسعهما بحيث يتخذان شكل تقدمة وتضحية ... ان البعض من افضل الكهنة الذين صادفتهم كانوا قد اصبحوا كهنة في سن النضج بتأثير زوجتهم . وكانت هذه ، بتواضع خلاق ، تجعل من منزلهم مكانا يشعر فيه كل واحد بأنه مرحب به دون تضجر ، مكانا تجري فيه الحياة وتتكاثر ... » .

Olivier Clément : Dialogues avec le patriarche Athénagoras, p. 169, Fayard, Paris, 1969.

ان انفتاح الزواج ، على المنوال الذي ذكرناه ، بالاضافة الى انه يحافظ على اصالة الحب ، يمنح هذا الاخير حظا اوفر بأن يدوم ، لأنه يجنبه التورط في الروتين ويحميه من قيام روابط خانقة من الامتلاك المتبادل . يقول الطبيب النفسي الدكتور لاندري ان مستقبل الزواج مرتبط « الى حد كبير بمكانيات انفتاح العائلة النووية (اي المؤلفة من الزوجين واولادهما) » . « بأتصالات مع رجال ونساء غير القرين » ، « بقبول واقع حاجة كل كائن بشري الى لقاءات متنوعة » . يقر لاندري ان انفتاحا كهذا يتضمن « اخطار تفكك لا يستهان بها » ؛ ولكنه يوضح ان هذا التفكك موجود الى حد بعيد في الاوضاع الراهنة وراء واجهة خداعة من الاتحاد الظاهري . يقول لاندري : « قد يحدث في المستقبل عدد اكبر من حالات فسخ الزواج الاحادي . ولكن عدد حالات الطلاق الحاصلة حاليا لا تعطي فكرة صحيحة عن درجة متانة الزواج الاحادي ، اذ كم من الأسر هي مفككة في نمط وجودها قبل ان تفسخ حقوقيا ! » .

راجع :

Dr. Marc Landry : La Famille en devenir, p. 25, in «Le Groupe familial», No. 61, octobre 1973.

راجع ايضا :

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 46-47.

Les Lettres d'amour de François et d'Antoinette, pp. 239-241.

١٩٦ — راجع :

Louise Despert : Enfants du divorce, pp. 9, 111.

لقد وضع العالم الاجتماعي الاميركي و.ج. غود Goode لائحة تثبت ارتفاع نسبة الطلاق في البلاد المصنعة من ١٩٠٠ الى

١٩٦٠ ، نثبتها فيما يلي (تشير الارقام الى عدد حالات الطلاق بالنسبة لكل الف زواج) :

البلاد		١٩٠٠	١٩٦٠
الولايات المتحدة		٧٣ر٣	٢٥٩ر٠ (١٩٥٩)
المانيا		١٧ر٦	٨٨ر٧
انكلترا وبلاد الوايلس	(١٩١٠)	٢ر٢	٦٩ر٥
بلجيكا		١١ر٩	٧٠ر٤
النروج	(١٩٠١ — ١٩٠٥)	١٢ر٦	٨٨ر٥ (١٩٥٨)
الدانيمارك	(١٩٠١ — ١٩١٠)	٣٠ر٠	١٨٦ر١
اسوج		١٢ر٩	١٧٤ر٦ (١٩٥٩)
فرنسا		٢٦ر١	٨٢ر٤ (١٩٥٩)
هولندا	(١٩١٠)	٢١ر٥	٥٧ر٧ (١٩٥٨)

راجع :

Aimé Savard : Couple et Mariage dans le Monde moderne, p. 8, I.C.I., No. 411, 1 juillet 1972.

هذا الازدياد يلاحظ ايضا في بلد نام كلبنان . راجع :

Claire Gebeyli : 1305 cas de divorce en 1971 : Les mariages libanais «cassent» de plus en plus (L'Orient-Le Jour, Vie moderne, Culture, Jeunes, du 8 au 14 avril 1972, pp. 8-9).

Mounir Chamoun : Problèmes de la famille au Liban, pp. 34-35.

الا ان فشل الزواج لا يتجلى في حالات الطلاق وحسب ، انما في الحالات الاكثر انتشارا بكثير التي يحتجب فيها التفسخ الفعلي وراء استمرار المؤسسة الظاهري .

يقول ارنست ال بهذا المعنى :

« ... كثيرون يفشلون ، ليس فقط الذين يطلقون ، ولكن غيرهم ممن يستمرون في تحمل زواج افرغ تدريجيا من معناه » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 19, p. 256.

- ويبدو أن نسبة هذا المظهر من الفشل الزوجي مرتفعة للغاية . تقول اوديت تيبو في احد مقالاتها ، مشيرة الى وضع البلاد الاوروبية المصنعة :

« اذا كانت نسبة حالات الطلاق قليلة الارتفاع (١٠ الى ١٥ ٪)، فان نسبة الزيجات الناجحة فعلا هي اضعف منها (حوالي ١٠ ٪ حسب بعض التحقيقات) » .

Odette Thibault : La famille en mutation. Faut-il contester la monogamie ?, p. 13, Hebdo-T.C., No. 1439, 3 février 1972.

وفي مقالة اخرى ، تقول الكاتبة نفسها :

« بموجب تحقيق قام به الـــ IFOP ، فبعد سنة زواج ، يصرح ٧٠٪ من الرجال و ٧٨٪ من النساء انهم خائبون او تعساء ، اما بعد سنتين . فتبلغ هذه النسب على التوالي ٨٠ و ٨٥ ٪ ، وبعد ثلاث سنين ٨٩ و ٩٠ ٪ . هذا الفشل لا يؤدي عامة الى الطلاق الذي تبقى نسبته ضعيفة (١٠ الى ٢٠ ٪ في اوروبا) . بل الى خلاف مقيم ، مضر جدا ليس فقط بالنسبة للزوجين بل للأولاد ايضا » .

Odette Thibault : L'Orientation nuptiale. La science au service du couple, Hebdo-T.C., No. 1503, 26 avril 1973, p. 11.

هذه الظاهرة المؤسفة . يجدها الاخصائي النفسي الدكتور منير شمعون منتشرة في الأسر اللبنانية ايضا . يقول : « الزوج الوالدي متوتر اكثر منه مفكك ، ويعيش عامة في لامبالاة متبادلة . هذا الخلاف الخفي يهدم فرح العيش الخ... » ويضيف : « ان خبرتنا العيادية تسمح لنا بالقول ان الازواج الأكثر انسجاما في الظاهر تعيش كل يوم مآسي ممزقة » . راجع :

Mounir Chamoun : Problèmes de la famille au Liban, pp. 34-35, in Travaux et Jours, No. 25, octobre-décembre 1967.

ان لازدياد حالات التفكك الظاهر وانتشار حالات التفكك الباطني اسبابا عديدة ليس من شأننا ان نتوسع في ايضاحها هنا ، عائدة الى حركة التطور الاجتماعي والتكنولوجي التي تضعف سلطة التقاليد ، وتوجد حاجات واغراءات جديدة . وتضعف الطاقة على احتمال الألم ، وتعزل العائلة النووية عن العشيرة التي كانت تحضنها وتساندها ، وتجعل الافراد اكثر تمايزا وتعقيدا مما يجعل ازواجهم اعسر ، الخ...

ان كثرة حالات فشل الزواج ، من فشل معلن وفشل خفي ، يقود الكثيرين في عصرنا الى التصدي لمؤسسة الزواج نفسها . ولكننا رأينا الى جانب ذلك ، اقبالا كبيرا على الزواج عند شباب البلاد المصنعة عينها التي ينتشر فيها هذا الموقف الرافض . فكيف التوفيق بين هاتين الظاهرتين . الحق يقال ان معظم حالات الرفض تتناول الزواج من حيث هو مؤسسة اجتماعية وليس من حيث ارادة الاتحاد والمشاركة الدائمة التي تتجلى فيه .

يقول الباحث الاجتماعي لويس روسيل :

« ان عنصري الزواج هما العلاقات الشخصية المتبادلة من جهة ، والمؤسسة من جهة اخرى . فالعنصر الثاني يبدو اليوم منتقص القيمة جدا في نظر الشباب » .

Louis Roussel, cité par Aimé Savard : Couple et Mariage dans le monde moderne, p. 8.

ويضيف ايمه سافار ، معلقا على هذه الملاحظة :

« صحيح ان الزواج معترض عليه ، خاصة بين المثقفين الشباب ، ولكن هذا الاعتراض يتناوله من حيث تكريسه الاجتماعي وليس ، او نادرا جدا ، من حيث هو ارادة تكوين زوج ، من حيث هو سعي الى اتحاد انتقائي ، وحصري ، ودائم » .

Aimé Savard : op. cit., p. 9.

لا بل يمكن القول ان حدة الانتقادات الموجهة حاليا الى الزواج وكثرة حالات التفكك التي تحصل فيه ، تعودان الى حد ما الى الآمال الكبيرة المعقودة على المؤسسة والتي كثيرا ما يخيبها الواقع الزوجي . وبعبارة اخرى لا يرفض الزواج بهذه الحدة الا لان الانسان المعاصر يطلب منه الشيء الكثير . يقول ايمه سافار :

« كثير من الزيجات فاشلة . ولكن وراء حالات الفشل هذه ، وراء الرفض ، نجد الامل العظيم الذي يضعه معاصرونا في الزوج . في عالم مديني urbain قاس ، مجزأ ، متوتر ، تسوده المنافسة — وبعبارة واحدة في عالم تضيع فيه الشخصية — يبدو الزوج لكل رجال ونساء اليوم تقريبا على انه الملجأ الرئيسي ، ان لم يكن الوحيد ، لشعورهم ، والمصدر الاساسي لسعادتهم . الارجح انه لم يوجد زمان قط انتظر فيه من الزوج ما ينتظر منه اليوم » .

وايضا :

« في مؤتمر مؤسسة علوم الزواج والعائلة في زوريخ ، في تشرين الاول ١٩٧١ ، صرح اخصائي الماني ، م. غريفر بما يلي : « اذا كان الناس يلجأون الى الطلاق ، سواء تزوجوا بعد ذلك او لم يتزوجوا ، فليس مرد ذلك الى عدم تقديرهم للزواج . بالعكس ذلك يعود الى اعتبارهم الكبير له والى الاهمية الفائقة التي تتخذها الحياة المشتركة في نظرهم » .

Aimé Savard : op. cit., p. 9.

هذه الازدواجية في موقف معاصرينا من الزواج تقتضي ايضاح امر بالغ الاهمية ، الا وهو ان الزواج يستمد قيمته الاساسية ؛ لا من كونه مؤسسة اجتماعية تفرضها التقاليد ويحميها القانون ، بل من كونه الاطار الاجتماعي الذي يعاش فيه الحب اذا اكتملت ابعاده ، وان هذا الاطار ليس له مفعولا سحريا انما هو المكان الذي يمارس فيه الشريكان مهمة طويلة ودقيقة ومحفوفة بالمخاطر ومهددة ابدا بالفشل ، الا وهي مهمة تحقيق الحب وانمائه . يقول ارنست ال :

« ان الزواج يمثل فقط الوضع الملائم مبدئيا ، اكثر من اي وضع آخر ، للاتحاد الكامل ، ولكنه يظهر ايضا كمهمة ، يفشل فيها كثير من المتزوجين » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 208.
لذا ينبغي عدم التأكيد على المؤسسة وكأنها غاية بحد ذاتها بل تسخيرها للحب الذي وجدت في الاساس لخدمته . تقول اوديت تيبو بهذا المعنى :
« يجب أن تكون المؤسسة في خدمة الحب ، وليس الحب في خدمة المؤسسة » .
Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 133.
ان هذا الموقف يتلاقى مع الهواجس المعاصرة ، كما عبر عنها مثلا العالم الاجتماعي لوسيان ميرونير ، احد المساهمين في التحقيق الذي اجري بادارة الدكتور بيار سيمون حول سلوك الفرنسيين الجنسي والذي نشرت نتائجه في تشرين الثاني ١٩٧٢ . يقول ميرونير في خلاصة لدراسة تصنيفية قام بها في اطار هذا التحقيق :
« ان ما تقرره التحاليل التصنيفية ينقض الاطروحة الشائعة عن انحلال متزايد في الاخلاق . انما يعبر عن التغييرات التي طرات على القيم الجنسية . هناك نزعة الى استبدال الزواج ، من حيث هو عقد خلقي ، بالزوج ، من حيث هو تعهد متبادل مؤسس على المشاركة الجنسية والعاطفية . ان الانسجام الجنسي ومساواة الرجل والمرأة في الحق باللذة اصبحا عنصرين اساسيين لتكوين الزوج وديمومته » .
Lucien Mironer : Formations, Attitudes et Comportements sexuels des Français, p. 72, in «Le Groupe familial», No. 61, octobre 1973.
خلاصة الكلام ، كما تقول اوديت تيبو . « ان حالات فشل الزواج ، وحتى مفاسده ، تعود الى عناصر متعددة يرتبط كثير منها بمفاهيم خاطئة اكثر مما يعود الى عيب في طبيعة الزواج نفسها . لذا فانها تدعو لا الى رفضه بحد ذاته بل الى تحسينه باتجاه شيء اكثر انسانية . لأنه ينبغي ان يجعل الزواج للانسان اكثر مما يجعل الانسان للزواج » .
Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 134.
راجع ايضا :
Joachim Bodamer : Sexualité, Amour et Névrose, p. 9.
Marc Oraison : Pour une éducation morale dynamique, p. 102.
Georges Mauco : Les Célibataires, pp. 186-187, p. 196.
١٩٧ — راجع :
Pierre Dufoyer : La vie conjugale au fil des jours, pp. 17-23, Ed. Casterman, Tournai, 1960.
١٩٨ — راجع :
André Alsteens : Dialogue et Sexualité, pp. 134-136.

١٩٩ ــ يقول آرنست ال :

« لقد فقد الزواج الحديث الدعائم التي كان يستنـد اليها في الماضي . لذا فانه يحتاج ، ليبقى حيا ، الى مشـاركة شخصيـة عميقة : لذا فان اختيار الشريك المناسب ــ الشريك الحقيقي ــ اصبح اكثر اهمية بما لا يقاس مما كان في الماضي » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 172.

٢٠٠ ــ راجع :

Oswalt Kolle' : Ton mari, cet inconnu, pp. 38-41.

٢٠١ ــ راجع :

Odette Thibault : La morale catholique est-elle humaine ? in «Témoignage Chrétien», No. 1361, 6 Août 1970, p. 21.

في كتابها القيم « الزوج اليوم » ، تنتقـد اوديت تيبـو بعض الأسس الزائفة التي قد يبنى عليها الزواج . فمثـلا تنتقـد فهم الزواج على انه « اجازة مزاوجة » . كما تنتقد المفهـوم النفعي للزواج ، كأن يكون ، في نظر المراة ، وسيلة للاستقرار ، وفي نظـر الزوج ، واسطة ليحصل في منزله على كل الخدمات ، يقدمها له شخص واحد مجانا . وتتصدى ايضا لمفهوم الزواج « كتعويض » عن خطأ ارتكب ، وتقول بأن حظ تلك الزيجات الاضطرارية بالنجاح هو بنسبة ١ على ١٦ . كما انها تنتقد توهم الزواج على انه نهاية العزلة والارضاء الكامل . وتنتهي الى القول :

« ان الدافع الحقيقي والصالح الوحيد للزواج ينبغي ان يكون الرغبة في العيش مع شخص يحبه المرء حقيقة ، وفي القيام معـه بعمل مشترك يدوم » . راجع :

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 61-66, p. 117.

ويقول اوسفالت كوله من جهته :

« ... ان امراة لم تتزوج الا لتشعر انها تخلصت من كل هم مادي يليق بها ان تفكر مليا وتتساءل اذا لم يكن زواجها في آخـر المطاف ، وتحت ظواهر الشرعية ، بغاء متعلى ، على صعيد راق . انها لكلمة قاسية تناقض الاخلاق العـادية ، ولكنهـا كلمة تجابه الوضع بصراحة ... » .

Oswalt Kolle : Ta femme, cette inconnue, pp. 220-221.

٢٠٢ ــ تذكر جوزيت ميليز ملاحظة ابداها رجل « مصر على العزوبة » :

« ما يقلق في الحياة المشتركة هو ان كل واحد معـرض لان ينسى بسرعة كلية المراعاة التي كان يعتقد ان من واجبه ابداءها للآخر في زمن اللقاءات الاولى » .

Josette Mélèze : Les Fragilités du couple, p. 15, Ed. Centurion-Grasset, 1972.

٢٠٣ — يقول الدكتور مارك لاندري :

« الاعتقاد بأن المؤسسة تكفي وحدها انما هو اعتقاد بأن للزواج قدرة سحرية على حماية الزوج » .

Dr. Marc Landry : La Famille en devenir, p. 24.

٢٠٤ — تستشهد اوديت تيبو بهذه الكلمات لهنري ميلر :

« الحب هو ما يقارب بين كائنين . انما ما يبقيهما معا ، فلا يكترثان بأن يتساءلا عن ماهيته . وكأنهما يتركان للحب ان يدبر امره بنفسه . وهو نادرا ما يقصر في هذا المجال ، اما الحل الذي يعتمده فهو بأن يموت حتف انفه . أن معظم الزيجات مبنية على قبر : قبر الحب » .

Henri Miller : Le Monde du sexe, cité par Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 51.

وتضيف الكاتبة :

« ... الزواج ليس نهاية ولا راحة ، انه بدء مغامرة كبرى ! »

Odette Thibault : op. cit., p. 61.

٢٠٥ — تقول اوديت تيبو :

« ... ان احادية الزواج الاصيلة ... انما هي امانة للقرين وليس للمؤسسة » .

Odette Thibault : L'Orientation nuptiale. La science au service du couple, Hebdo-T.C., No. 1503, 26 avril 1973, p. 11.

٢٠٦ — راجع :

André Alsteens : Dialogue et Sexualité, pp. 149-150.

تقول اوديت تيبو انه يمكن للقانون ان يحمي الزوج couple من النزوات التي هي ، على حدتها ، غير متعقلة وعابرة . انما لا يمكن اتخاذه ذريعة للاستغناء عن الجهود الضرورية لانماء قوى التماسك الداخلية في الزوج . راجع :

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 44-46.

٢٠٧ — راجع :

François Duykaerts : op. cit., p. 305.

٢٠٨ — يقول ارنست ال انه ينبغي « اعطاء مضمون انساني مكتمل ، مضمون وحدة نفسية وجسدية ، للاتحاد الشرعي ... الذي ارتبطنا به » .

Ernest Eli : De l'Enfant à l'Adulte, p. 19.

٢٠٩ — يقول ارنست ال :

« يظهر الاختبار ان الزوج يتعرض دوما لخطر خسارة وحدته الداخلية ان لم ينجح اتحاد الاجساد في المشاركة الجنسية او اذا

تلاشي هذا الاتحاد » .

E. Ell : op. cit., p. 31.

ويضيف :

« ان الحب الزوجي ، بأرقى اشكاله ، هو حب ممنوح من خلال الجسد ومقبول في الجسد ... » .

E. Ell : op. cit., p. 88.

وايضا :

« ... في الزواج ، يمكن ان يستخدم التفنن في الاتحاد الجنسي كحافز لتعميق مستمر للحب : ان هذه الغاية لا تبرر هذا التفنن وحسب بل انها تجعل منه واقعا مقدسا » .

E. Ell : op. cit., p. 248.

٢١٠ — راجع :

François Duykaerts : op. cit., p. 310.

يحذر المحللون النفسيون في هذا الصدد من ظاهرة تجدد الفصم بين الحواس والقلب التي كثيرا ما تحصل بعد سني الزواج الاولى ، واحيانا منذ تكريس الاتحاد رسميا ، وذلك لأن الشريك الزوجي يكتسب ، بالنسبة للعقل الباطن ، صفة بديل والدي ، مما يوقظ التحريم الاوديبي الاول . راجع مثلا :

Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, pp. 201-202.

٢١١ — راجع :

André Alsteens : Dialogue et Sexualité, pp. 114-117.
Ignace Lepp : op cit., p. 241.
Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, pp. 107-108, p. 244, pp. 340-341, p. 371.

٢١٢ — راجع :

Dr. Jean-G. Lemaire : Les conflits conjugaux, p. 68.

يقول ارنست ال :

« عوض ان يكون قمة وخلاصة الانجذاب الحبي ، كثيرا ما يصبح العمل الجنسي واقعا يوميا لا روح فيه ... » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 250.

ويبين الدكتور توردجمان ان العلاقة الجنسية ، مع انها « نواة ممتازة للاتصال » ، لا يسعها ان « تؤسس ، لوحدها ، المشاركة الزوجية » ، ذلك انها «لا تتخذ معناها الا بالاضافة الى مجموعة الخبرة المعاشة » . وبذلك فانها تشكل - كما يقول الكاتب ، « آلة التسجيل » الاكثر حساسية للمناخ الزوجي » . ويضيف : « عندما ينقطع الاتصال الزوجي ، يتحول الجماع الى مجرد استمناء متزامن ، الى مونولوج لا فائدة منه يتعب ويحرم الرفيق » . عند ذاك تحتمي الزوجة من زوجها برفضها اللذة الجنسية ، اما الرجل ، فان

تضايق امراته او اشمئزازها او لامبالاتها تقـوده في النهاية الى العجز الجنسي . راجع :

G. Tordjman : Clefs pour la Sexologie, pp. 270-271.

وتقول اوديت تيبو :

« ان الرباط الجنسي ، ان لم يدرج في مجموعة ، سوف ينحل بفعل العادة او السام (...) ان انخفاض الانجذاب الجسدي (...) شبه محتوم ان لم يتح له دفق جديد نابـع من اصعـده اخرى » .

وايضا :

« ان الحنان ، والانفتاح الى الآخر ، وتعابير المودة والانتباه ، والاكتشاف الذي لا ينتهي لاهتمامات او ملذات مشتركة ، انما هي مجالات يتجدد فيها دفق الرغبة » .

هكذا ينبغي للاتفاق الجنسي ان يندمج في اتفـاق نفسي لكي يدوم . وبالعكس فان النزاعات على الصعيد النفسي قد تؤدي الى انهدامه :

« ان الخلاف يقود حتى الى اخماد الرغبة (...) فالـزوج يحقد على زوجه ، يحترس منه ، ينغلق دونه . ولكن نجاح الجماع يتطلب عفوية وثقة » . راجع :

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 35-36, p. 50.

راجع ايضا :

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, pp. 348-351.

٢١٣ — يقول الدكتور اندره برج ان الزواج ينبغي ان يكون « كسبا واغراء دائمين ومتبادلين بين الزوجين في صميـم حياتهما المشتركة » .

Dr. André Berge : Le Métier de parent, pp. 47-48.

٢١٤ — راجع :

Odette Thibault : op. cit., pp. 39-42.

٢١٥ — راجع :

François Duykaerts : op. cit., pp. 303-322.

٢١٦ — راجع :

Dr. André Berge : L'Education sexuelle et affective, p. 179.

Oswalt Kolle : Ton mari, cet inconnu, pp. 160-167.

في رواية مورانيا ، « الحب الزوجي » ، يقول المتحدث متكلمـا عن هواه لزوجته :

« لأول مرة ، احسسـت بأنني السيـد ، ذلك الشعـور الذي يطبقه الرجال احيانا ، بغير تمييز ، على العلاقات الزوجية ، قائلين

« امراتي » كما يقولون « بيتي » ، « كلبي » ، « سيارتي » ... » .

Alberto Moravia : L'Amour conjugal, p. 35, «Folio», 1972.

راجع ايضا :

Dr. André Berge : La Sexualité aujourd'hui, p. 143.

٢١٧ — راجع :

Jean-Yves Calvez : La Pensée de Karl Marx, p. 277, Edition revue et abrégée, Seuil, Paris, 1970.

لقد كتب الفيلسوف الشخصاني المسيحي عمانوئيل مونييه ، سنة ١٩٣٣ ، في معرض وصفه « للبورجوازي » :

« اسمعوه يقول : امراتي ، سيارتي ، اراضي ، تشعرون جيدا ان ما يقيم له الحساب ليس المراة او السيارة او الاراضي ، انما العبارة البدينة المشيرة الى الملكية » .

وايضا :

« انه يجهز لنفسه اثاثا من الاشياء الجميلة ، اي الاشياء المتعة ، ومن بينها زوجته ... » .

Cité in Mounier, L'Homme et son Message, p. 131, in «Planète + Plus», août 1970.

راجع ايضا :

Alexandre Soljénitsyne : Le Pavillon des cancéreux pp. 534-544, Le Livre de poche, 1971.

٢١٨ — بصدد وضع الدونية التي تعاني منه النساء ، كتبت اوديت تيبو في احدى مقالاتها :

« مع ان القضية سياسية بمعنى ان وضع المراة ليس سوى احد الاشكال المتعددة لاستغلال الانسان للانسان ، الا انني اخشى كثيرا بأن لا يكون تغيير البنى الشرط الكافي للتطوير في هذا المجال ، مع انه شرط ضروري له . انه لواقع اختباري ، بأنه ، رغم الثورات ، لم تحقق المساواة الحقيقية بين الرجل والمراة في اي من الانظمة الاشتراكية التي اقيمت . ان تسلط الرجل على المراة هو من اقدم واشمل اشكال التسلط ، انه سبق قيام الراسمالية وهو باق بعد الغائها . هذا ما يبينه بوضوح تحليل شايلا رووبوثام (شايلا رووبوثام) : النسوية والثورة) » :

Odette Thibault : La «Femme-Alibi» doit disparaître (Hebdo-T.C., No. 1556, 2 mai 1974, p. 36).

٢١٩ — راجع :

J.-Y. Calvez : op. cit., pp. 187-190, pp. 313-319.

٢٢٠ — تقول اوديت تيبو :

« لا يصبح العمل الجنسي حقا لمجرد قيام الزواج ، والا كان

نوعا من الاغتصاب الشرعي ــ ولكن الا يــزال كذلك ، بالنسبة للعديد من النســاء اللواتي يتحملنه ، وفي ذهن كثير من الازواج ... دون ان يعوا ذلك البتة ؟ اما يكون العمــل الجنسي مشــاركة ، مبادلة ، او لا يجب ان يكون ... » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 62.

٢٢١ ــ

cité *in* «Ecclésia», No. 258, septembre 1970, p. 6.

٢٢٢ ــ يقول المحلل النفسي الالمانــي هورست ــ ابرهارد ريشتر ، المتخصص في اضطرابات العلاقات العائلية :

« ان الحياة المشتركة المؤولة كعقد ملكية (...) كانت ولا تزال كثيراً ما تقود الى تعلقات تكافلية وثيقة بافراط يتوصل فيها الخوف من الانفصال والمراقبة الاحتياطية للأمانة المتبادلــة الــى خنــق العواطف الايجابية » .

Horst-Eberhard Richter : Psychanalyse de la famille, p. 38, Mercure de France, Paris, 1971.

٢٢٣ ــ لقد كتبت جورج ساند :

« الزواج دون الحب ، انما هو اشغال شاقة مؤبدة ... » .

George Sand : Lettre à son fils, citée par André Maurois : Lélia ou la Vie de George Sand, p. 443, Ed. Rencontre, Lausanne.

هذا ما يبرر الاعتراضات الموجهة اليوم الى تصلب المؤسسة الزوجية ، ويوضح ضرورة تليينها . راجع :

Georges Mauco : Les Célibataires, pp. 200-201.

هنا تظهر حكمة وانسانية موقف الكنيسة الارثوذكسيــة التي تقبل بالطلاق رغم جعلها اياه صعب المنال وابداء تحفظاتها تجاهه . وقد أوضح المفكر الارثوذكسي المعاصر بول افدوكيموف هذا الموقف في كتابه « سر الحب » حيث يقول :

« ... اذا كان الحب هو مادة السر (اي سر الــزواج) ــ ويصرح يوستنيانوس ان الزواج لا يكون حقيقياً الا بالحب وحده ــ فتبادل الوعد ليس سوى تعبير عن الحضور الفعلي للحب (..) ليس الطلاق سوى تقرير غياب الحب ، تلاشيه ، انهدامه ، وبالتالي مجرد اعلان لا وجود الزواج . انه شبيه بالحرم الكنسي ، اي انه ليس عقابا ، بل تقرير انفصال سبق فحصل (...) .

« تقر الكنيسة اذا انه توجد حالات تتفرغ فيها الحياة الزوجية من مادتها السرية وتصبح مجرد تدنيس مستمر للتدسيات قد يقود الى هلاك النفس . ان لا انفساخية الرباط قــد تضطر المــرء الى الكذب . بالمحافظة على الخير العام ، يقتل الخير الشخصي . من اجل الحفاظ على المظاهر الاجتماعية ، على وقار رب العائلة ، اقام

المجتمع البغاء بالاشتراك مع الدولة . فالبغاء يدفع نفقات احادية الزواج القائمة . ربما لهذا السبب يقول الانجيل تلك الكلمة الغامضة جدا عن البغايا اللواتي يسبقننا على طريق الملكوت ...

« ان لا انفساخية الرباط (بحد ذاتها) لا تهم الحب البتة . السؤال يطرح حين لم يعد من شيء يحافظ عليه ، اذ ان الرباط الذي اعلن في البدء على انه غير قابل للانفساخ قد سبق وفسخ ، وليس للشريعة ما يمكنها من ان تقوم بمقام النعمة ، لا يمكنها ان تشفي او تبعث او تقول : « انهض وامش » . راجع :

Paul Evdokimov : Sacrement de l'amour, pp. 262-264, Editions de l'Epi, Paris, 1962.

٢٢٤ — راجع :

Paul-André Lesort : Les Reins et les Cœurs, pp. 168-169, Ed. Plon, Paris, 1955.

Les Lettres d'amour de François et d'Antoinette, pp. 48-49.

٢٢٥ — راجع :

Dr. André Berge : L'Education sexuelle et affective, pp. 179-182.

٢٢٦ — راجع :

Denis de Rougemont : L'Amour et l'Occident, p. 261.

٢٢٧ — راجع :

André Alsteens : Dialogue et Sexualité, pp. 168-176, 331, 334.

٢٢٨ — راجع :

Dr. André Berge : op. cit., pp. 179-181.

يقول مارك اوريزون بالمعنى نفسه ان الزواج « يتطلب ... من كل واحد نوعا من الالتزام الديناميكي المتجدد كل يوم » . راجع :

Marc Oraison : L'Harmonie du couple humain, p. 52.

ويوضح ارنشت ال ان الزواج « فتح مستمر » ، توتر دائم نحو تحقيق الحب ، وان من هنا ايضا تنبع ضرورة احاديته وديمومته . يقول : « لن ننتهي ابدا من بناء هذا الاثر الذي هو الزواج » . ومن هنا ايضا ، يقول الكاتب ، ضرورة اعادة نظر مستمرة في الوضع الزوجي . راجع :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, pp. 228-229, p. 256.

وتقول اوديت تيبو :

« ينبغي خاصة اعتبار الحب فتحا دائما (...) انه انتصار يومي على الموت . من اجل انقاذ الحب من الاخماد ، يجب ان يغذى كالنار ، لانه نار » . راجع :

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 50-51.

تقول جوزيت ميليز :

« ان الذي يعرف ، او التي تعرف ان لا شيء ابدا يعتبر مكتسبا بصورة كلية ونهائية ، بل ان كل شيء يجب ان يكسب مجددا كل يوم ، هذا يبقى يقظا ولا يدع نفسه يفاجأ . انه يشبه العذارى العاقلات في الكتاب اللواتي يغذين بانتظام مصباحهن الزيتي ليحبطن خطط الليل ، واللواتي يبقين دوما مستعدات لاستقبال المحبوب (...) ان الانتباه الرصين المستمر يجنب الاستنزاف والعادة والتراخي » .

وايضا :

« ليس الزواج ابدا الا ما يشاؤه الزوجان . فاذا كان يحمل في ذاته امكانية هدم الزوج ، فهو يحمل ايضا امكانية تألقه وتحقيقه واكتماله . يعود لكل واحد ولكل واحدة امر اختيار المعنى الذي يريد ان يضفيه عليه » .

Josette Méléze : Les Fragilités du couple, pp. 13-14, p. 184.

وقد كتب رينه سيمون :

« ... ليس المهم مجرد الرجوع الى وعد اعطي (مع ان الوعد ليس امراً لا طائل له) او الى الضغط الموضوعي الذي يمارسه القانون ، بل الابداعية المستمرة لحب لا يكرر الوعد المنشىء للزوج والاسرة الا ليعيد ابتكاره من جديد ويعطيه مضمونا يتغير مع مراحل الحياة » .

René Simon : La Famille se meurt..., in Hebdo-T.C., No. 1463, 20 juillet 1972, p. 16.